

الحرب والمجتمع القديم

دراسات فى أسباب الحروب ومسبباتها

تأليف

دكتور سيد أحمد على الناصرى

المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)
العدد ٢٨٧

الحرب والمجتمع القديم

دراسات في أسباب الحروب ومسبباتها

تأليف
دكتور سيد أحمد على الناصري

اهداء

الى ابنـــاء وطنى الذين ســـــقطوا شــهداء فى ميدان الشرف ... الى الالاف من مــواطنى الذين يتطلعون الى نيل مثل هــذا الشرف .. الى ضحايا العدوان الفاشم على بلادى .. اهــدى هــذا البحث واطاطىء الراس اجلالا واحتراما .

المؤلف

مقدمة

ان الحرب ثقافة بقدر ما هى مهارة وقدرة على القتال، فالجندى المدرك للأبعاد العميقة لنظرية الحرب أكثر ثقة بنفسه وأكثر صموداً وبخاصة اذا كان هذا الجندى يدافع عن بلاده ضد معتد أثيم ، ولهذا نجد للعسكرية فلاسفة ومتخصصين وواضعى نظريات ، وقد بدأ الألمان ذلك منذ بسمارك وتوالت نظرياتهم العسكرية فيما بعد ذلك حتى انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، كذلك لم يكن القادة الانجليز أقل اهتماما من الألمان فى هذا المجال ، فالفلسفة العسكرية هى التى تغلب على مؤلفات ونستون تشرشل الى حد ايمانه بأن التاريخ تصنعه المعارك الكبرى (١) كما أن الفيلد مارشال مونتوجومرى انكب بعد انتهاء الحرب العالمية

---

(١) Battles are the principal milestones in history (Churchill).

الأخيرة على كتابة ملحمة عسكرية تاريخية عن تاريخ الحروب في العالم القديم والوسيط والحديث .

ولأن الحرب ظاهرة « انسانية » قديمة قدم المجتمع الانسانى نفسه ، ولأن الدوافع الى قيامها لم تختلف كثيرا في العالم القديم عنه في العالم الحديث ، فقد حظيت بالاهتمام والدراسة من جانب العسكرى والمؤرخ والاقتصادى وعالم الاجتماع ، وذلك لأنها لا تخص مستقبل الجنود فقط بل مستقبل حياة الملايين من المدنيين داخل المجتمع كالعمال ودافعى الضرائب وأصحاب الممتلكات وربات البيوت(١) .

ومن ثم أدركت الأمم الكبرى أهمية هذه الدراسات فأنشأت لها المعاهد والأكاديميات ، وخصصت لها أساتذة وعلماء وأصبح هناك تخصص معروف وهو الدراسات الحربية War-studies وليس كل هذا بكثير على الحرب ، فهى ظاهرة غير عادية تقرر مصير الانسان والاقتصاد وما يتلو ذلك من مآس سياسية واجتماعية منها ما هو مباشر ، ومنها ما يتخلف لسنوات مستقبلة حيث

---

(١) A. Zimmern : Politico-Economics in Fifth Century. Athens », Oxford University Press (5th edition), 1961, pp. 246-247.

يؤثر فى كافة تيارات الأمة ويشكل تاريخها لعدة قرون.

ويعرف المؤرخون جيدا أن أهم خطرين على الانسان فى العصور القديمة كانا انتشار الوباء وقيام الحرب ، ولقد أمكن التقدم العلمى فى مجال الطب الانسانى الحديث من السيطرة على انتشار الوباء بل والقضاء عليه ، ولكنه لم يستطع حتى اليوم التغلب على قيام الحروب لدرجة أن بعض المؤرخين المتشائمين راحوا يرددون أن الحرب حتمية على بنى الانسان ، تفرضها عليهم قوى خفية أشبه بقوى القدر، وأن حماية الله (Providence)• هى وحدها القادرة على وقفها ، بل آمن فريق آخر بأنها ظاهرة طبيعية للحفاظ على العدد المعقول من سكان الأرض ، وبدون قيامها سوف يزداد عدد السكان لدرجة تهدد بقيام المجاعات ، ولكن هذا الرد مرفوض لأن التقدم العلمى لم يشمل بعد كل جنبات الأرض ومصادرها من بحار وصحارى وغابات وربما — من يدرى — الى الكواكب الأخرى !!!

ان نتائج معظم الأبحاث التى أجريت على هذه الظاهرة تكاد تتفق فى أن الحرب انفجار سياسى يؤدى الى

القتال وأن هذا الانفجار يحدث عادة نتيجة لتفاعل عوامل كثيرة أهمها العوامل الاجتماعية والاقتصادية ونظم الحكم فى البلاد ، كما أن التفسير الاشتراكى لظاهرة الحروب يتفق مع هذه النتائج فى وجود علاقة ومسئولية بين « أصحاب المصالح المادية » وبين الحرب العدوانية ، بالرغم من أننا لا نشك ـ ولو لدقيقة واحدة ـ فى أن الحرب صراع سياسى بالدرجة الأولى .

وفى النهاية أرجو أن ألفت نظر القارىء الى ملحوظتين فى هذه الدراسة الموجزة :

أولاهما : أننى لكى لا أكون ذاتيا وضعت تخصصى فى التاريخ والحضارة ـ وهو التاريخ الأوروبى القديم ـ كتجربة لظاهرة الحرب التى تتبعتها ، وعكفت على دراستها واستخراج بعض العوامل المشتركة بينها ، ثم بلورت النتائج فى موضوعات مبسطة .

وثانيتهما : أننى استبعدت الحرب الدفاعية لأنها حربا مشروعة ورد فعل لفعل عدوانى ، ولأنها تفرض على المواطنين المسالمين فى بلادهم من قبل قوى معتدية ، ومن

ثم رأيت أن الذى فى حاجة الى الدراسة هو الجانب المعندى لمحاولة البحث عن الأسباب والدوافع الدفينة التى تدفعه الى شن مثل هذا العدوان ، ولأننى أعتقد أن الحرب عمل جنونى يقوم به المجتمع المجنون ، وعلى ذلك فالمجتمع العدوانى مجتمع مريض سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وواجب على المؤرخ أن يسجل هذه الأمراض ، علّ المدافعين عن بلادهم يجدون منها سلاحا دفاعيا اذا ما آمنا بأن لكل شىء نقيضه ، ولكل سلاح مهاجم سلاحاً آخر مدافعا .

والله ولى التوفيق .

كلية الآداب جامعة القاهرة .

ديسمبر ١٩٧١

الفصل الأول :

مدخل الى الموضوع

ما من شك فى أن دراسة التاريخ متعة كبرى • كما أنها مادة لا غنى عنها فى مناهج التعليم ، اذ أنها توسع الادراك وتساعد على تبلور الاستقلال الفكرى عند الشخص ، وقبل كل شىء فان دراسة التاريخ شرط هام وأساسى لرفع الوعى القومى •

والى جانب ذلك فقد علت صيحات تطالب باعادة النظر فى مناهج دراسة التاريخ بحيث تكون دراسته هادفة ونافعة ومكرسة لخدمة المجتمع المعاصر(١)• وعلى ذلك فأستاذ التاريخ مطالب بأن يختار من التراث التاريخى الخصب ما يناسب مشاكل مجتمعه ، وبخاصة تلك الأحداث التى تمخض عنها نتائج كبرى بما فى ذلك العقائد والمبادىء والأفكار التى غيرت وجه التاريخ ، وهذا يلقى على عاتق

(١) انظر كتاب قضية التاريخ القديم للمؤلف ، سلسلة المكتبة الثقافية العدد ٢٧٢ سبتمبر ١٩٧١ •

أستاذ التاريخ مسئولية كبرى •• أعنى مسئولية اختيار الموضوعات التاريخية •

ان دراسة التاريخ بعامة ـ ودراسة التاريخ القديم بخاصة ـ يجب أن تكون دراسة هادفة ذات غرض نافع يخدم الحاضر ويساعد فى بناء المجتمع الحديث شأنه شأن العلوم الانسانية ، أو التكنولوجية (١) الأخرى ورسالته السامية هى مساعدتنا على فهم أنفسنا وماحولنا ، ولذا نادينا وسننادى دائما بوجوب قيام تعاون بين أساتذة الحضارات القديمة وأساتذة التاريخ المعاصر ومهندسى سياسة الدولة من أجل تتبع خيوط المشكلات السياسية عبر التاريخ حتى لا نقع فى أخطاء جسام، وحتى نتخذ من الخطوات مايناسب عملية التسلسل التاريخى ، واذ كنا من الذين لايشترطون فى المؤرخ القدرة على التنبؤ الا أنه يستطيع بغريزته التاريخية أن يتوقع ما هو ممكن حدوثه مستقبلا ، فالفشل فى أمر ما فى الحاضر يفيد المستقبل ، كان ذلك وسيكون دائما ، ان أستاذ التاريخ القديم قبل أن يضع يده فى جعبته عليه

---

(١) It becomes valuable when it is studied in detail, because it illustrates the psychology of the politicians and those of the crowds. (J.B.S. Heldane).

أن يضع فى اعتباره الأمور التى تقلق بال المجتمع وتستولى على تفكير رجل الشارع ، وبعد ذلك يختار الموضوعات المناسبة ، عندئذ سوف لا يجد آذانا صاغية فحسب ، بل يكون قد أسهم مساهمة جادة فى حل مشاكل المجتمع ، كذلك الأمر بالنسبة لأستاذ التاريخ المعاصر وصانعى السياسة الخارجية لا بد لهم من تفهم العمق التاريخى للمشاكل قبل البحث عن حلول لها ، والمؤرخ الناضج هو الذى يحكم على الحدث الواحد من زاويتين مختلفتين احداهما تاريخية والأخرى معاصرة .

ما من شك فى أن المشكلة الكبرى التى تقلق بال المؤرخين والفلاسفة والسياسيين على امتداد الأرض كلها هى كيفية تجنب قيام حرب شاملة ومدمرة تقضى على تراث الانسان الذى قضى فى خلقه أكثر من خمسة آلاف سنة من المعاناة والعرق والدم ، وقد سجل فيلسوف العصر برتراند راسل مخاوفه فى عبارته « ان أى شىء مهما كان نوعه معرض للدمار فى أية لحظة بسبب الحرب » اذن فقضية الحرب قضية تهمنا كأعضاء فى المجتمع الانسانى وأبناء أمة عريقة الحضارة على ظهر هذا الكوكب ، كما

أن الحــرب العــدوانية التى يقــوم بهــا الاســتعماريون والعنصريون الصهاينة ضد أمتنا العربية خطر يهدد سلام وطننا العربى ، فلا يكاد يمر عشر سنوات حتى نتعرض لعدوان جديد أو هجمة عدوانية ، هكذا تحتم ظروفنا أن نولى « لظاهرة الحرب » أهمية خاصة عند تدريس ودراسة التاريخ للبحث فى أعماق هذه الظاهرة واكتشاف جذورها .

ان « علم الحرب » فى نظر كثير من المؤرخين لا يمكن أن يقوم بذاته لأن الحرب صراع سياسى فى الدرجة الأولى ، كما يلعب الاقتصاد دوره فى هذا الصراع ، وعلى هــــذا فان الدراســـة التاريخيــة ســوف تطرق دور الحكومات ومشكلة الحكم ومدى مسئولية ذلك عن تفجر الصراعات الدولية ، كما أن السياسة تشمل كافة المشاكل فى المجتمع لأن التفاوت الطبقى يذوب والصراعات الاجتماعية تختفى ساعة الحرب من أجل ســلامة الوطن ، كما أن الســياسة تشكل اليوم ـ أكثر من أى وقت مضى ـ ثقافتنا ومشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية .

ولو افترضنا جدلا أن الدعوة لاعادة النظر فى تدريس

التاريخ القديم وجـدت آذانا صاغية من المهتمين بدراسـة التاريخ واعترفوا بالدور الذى يمكن أن يقوم به فى مجال الخدمة العامة وتشخيص المشـكلات السـياسية فقد ترتفع الأصوات من أساتذة التاريخ القديم أنفسهم متسائلين لماذا يصدر هذا الاهتمام من جانب المتخصصين فى تاريخ أوروبا القديم أو ما يعرف بالتاريخ اليونانى الرومانى ؟

ما من شك فى أن التاريخ اليونانى الرومانى يحتل مكانة متميزة فى دراسة التاريخ الانسـانى وبخاصـة فيما يختص بتطور الفكر السياسى والاجتماعى ، ومن ينـكر مثلا اسـهام فلاسفة الاغـريق من أمثـال أرسـطو صاحب كتاب السياسة ، وأفلاطون صاحب المدينة الفاضلة فى محاولة معالجة أزمة مشكلة الحكم !؟ وأى كتـاب فى علم السياسة والاجتماع لابد أن يبدأ بالفكر اليونانى والرومانى ، أليس الرومان هم فقهاء العالم الأول وموجدو « القانون الدولى » الذى اليه تحتكم الدول فى صراعاتها السياسية ؟

حقيقة ، ان المتخصص فى التاريخ والحضارة اليونانية الرومانية ليجد نفسه فى منجم غنى بالمشـكلات والنمـاذج

والقضايا السياسية من كل جنس ومن كل نوع ، كما أن « الحرب » كانت شيئاً هاماً بالنسبة للدويلات الاغريقية كما كانت عماد الامبراطورية الرومانية حتى فى أزهى عصور السلام الروماني ، ولم تكن الحرب سواء بين الدويلات اليونانية أو في الامبراطورية الرومانية أمرا مجردا بل ظاهرة ذات جذور ممتدة في كل جوانب المجتمع القديم بأسره ، وهذا يعطينا معلومات قيمة عن هذه الظاهرة الهامة ٠

لقد أوضح فيلسوف العصر برتراند راسل أن المشكلة الرئيسية فى العالم القديم لا تزال هى نفس المشكلة فى العالم الحديث والمعاصر وهي مشكلة الحرب والسلام ومسئولية السياسيين والحكومات فى الحفاظ على السلم ومنع نشوب الحرب ، كما أن اميل روستوفتزف أحد أعمدة التاريخ اليونانى الرومانى يصرح علانية بأن لا أحد يستطيع أن يتفهم التاريخ المعاصر ما لم تكن لديه فكرة واضحة عن تطور نظم الحكم فى العالم القديم ، وجدير بالذكر أن مؤرخ العصر الحديث الأول سير أرنولد توينبى بدأ دراسته بتخصص فى التاريخ اليونانى الرومانى

وحضارته فوجد نفسه فى نهــاية رحلة عمــره الأكاديمى أستاذا للعلاقات الدولية فى معهد الدراســات الاستراتيجية الملكى بلندن •

خلاصة القول أن مشــكلات العــالم المعاصرة ليست جديدة عليه فقد خبر العالم القــديم (اليونانى الرومانى) تطورات سياسية هامة لا نزال نعيش فى دوامتها مثل نشأة المدن وظهور المشاكل الاجتمــاعية المترتبــة على ذلك مثــل البيع والشراء أو العــرض والطلب والعمــل والعمّــال ومشكلة الحكم والوحدة السياسية بين الدول والشــعوب ، كذلك يرى آخرون أن هنــاك ثمــة علاقة بين أفول كل حضارة وبزوغ حضارة وريثة لها ، فى منطقة أخرى من العالم واذا صح هذا الرأى فانه دليل قوى على وجــود فكرة الاحساس بالمجتمع الدولى ودليل على قيــام علاقات عالمية •

الفصل الثانى :

الحرب والمجتمع القديم

فشل فلاسفة التاريخ فى الاتفاق على رأى واحد بخصوص الاتجاه الذى تسير فيه أحداث التاريخ ، ففريق يرى أن التاريخ يسير فى اطراد تقدمى بينما يتمسك آخرون برأى قديم : أن الأحداث تعود الى الوراء الى النقاط التى بدأت منها ، وفريق ثالث يرى لا هذا ولا ذاك بل ان التاريخ يسير فى خط حلزونى أى يجمع بين تكرار الحوادث والخط التقدمى ، ولكن كلا من هذه الآراء يقوم على وجهة نظر لها ما يؤيدها ، ولا يوجد رأى تتمثل فيه كل الحقيقة ، ولهذا فقد تركنا المشكلة برمتها لكل صاحب طاقة فى العلوم الانسانية وكل مجتهد فى علم التاريخ .

وأقرب الآراء التى عبرت عن حقائق تاريخية قول فشر Fisher عن أحداث التاريخ بأنه « لا يرى سوى

أزمة تتبع أزمة كموجة تلاحق أخرى (١) » .

ان أحداث التـاريخ تؤكد قول فشر ، اذا ما غيرنا كلمة أزمة Crisis بمرادف تاريخى هو « حرب » لأن كلمة « أزمة » عند المفكرين ترادف كلمة « حرب » عند المؤرخين ؛ لأن أكثر الأحداث تعددا وأخطرها نتائج وأبعـاد فى التـاريخ هى الحـرب ، ولو تتبعنـا الأحـداث التاريخية بالبحث والتحليل لوجدنا أن الحـرب وراء كل حدث وهى نتيجة لحدث سابق ومسببة لحدث لاحق حتى الأحداث التاريخية التى لم تنتج من حروب ليست فى الواقع سوى نتائج بعيدة المدى لحروب قديمة لأن الحرب مستمرة ومتعددة والنتائج التاريخية متعلقة بها ومسببة عنها .

ان من يقسم التاريخ اليـونانى الرومانى الى فترات ليجد أن الحروب سادت فى ثلاثة عشر قرنا بينما سـاد السلام فى قرنين فقط ، وللحروب عادة أسـباب سياسية واجتماعية ضاربة العمق فى المجتمعات ، ولكن فى حالات نادرة نجد لها أسبابا طبيعيـة غير عميقة كسلسلة البراكين

---

(١) Crisis following crisis like a wave follows another.

التى حدثت فى الشرق الأوسط القديم وفيضانات الأنهر أو غيرها من ثورات الطبيعة ، والتى حتمت على بعض الشعوب القيام بحروب كوسيلة ـ لا غيرها وسيلة ـ من أجل البقاء ، أما بالنسبة للتاريخ اليونانى الرومانى فالأمر يختلف لأن الأسباب الطبيعية لم تكن من الخطورة بمكان جعلها تتمخض عن حروب طاحنة ، حقا لقد حدثت سلسلة من البراكين فى آسيا الصغرى ولكن آسيا الصغرى ليست الا طرفا بعيدا للعالم اليونانى ، وحتى هذه البراكين لم تكن ذات قدر كبير من الخطورة ولم تسبب قدرا كبيرا من الدمار ، ونفس الشىء يمكن أن يقال عن فيضانات الأنهار وعلى أى حال : لنرى ماذا قال أحد المتخصصين فى تاريخ الشرق القديم وهو (ج.ب جرندى) G.B. Grundy « حروب ... حروب .. حروب . ولا شىء غير الحروب .. بعضها محدود وبعضها متسع .. » أما بالنسبة للتاريخ اليونانى الرومانى فقد قال (تزمرن) A.E. Zimmern « لقد كانت الحرب فى الولايات اليونانية جزءا طبيعيا من حياتها كالرياضة واللهو بالنسبة لنا » (١) .

(١) Alfred Zimmern : The Greek Commonwealth — Politics and Economics in Fifth Century, Athens, Oxford University Press, 1961, (5th edition), p. 245 f.

وهدفنا فى هذا الفصل مناقشة هذه النتائج التى وصل اليها هؤلاء المفكرون ، والتقليل من الخوف والذعر اللذين يتملكاننا عند الحديث عن الحرب سواء فى بلاد اليونان أو أى جزء آخر من العالم القديم ودراسة ظاهرة الحرب بعمق أكاديمى بعيد عن السطحية والانفعال .

من حقنا أن نشير الى تعاطف تزمرن Zimmern مع اليونانيين القدماء ، ومحاولته التخفيف من كلمة حرب بل وايجاد عذر طريف للحروب القديمة كما يقول هو : « ان الحرب لم تكن ببساطة سوى طريقة عادية لقضاء بعض الوقت فى معسكر فى الربيع المبكر » ولكننا نعلم أن للحروب اليونانية نتائج مروعة خلفت البؤس والفقر والتفكك السياسى .

ويبدو أن المؤرخين الأوربيين عندما نظروا الى الحرب القديمة هذه النظرة البسيطة كانوا تحت تأثير « حروب العصور الوسطى » التى كانت تدور فى شكل مهذب gentlemanly manner ، وقد رفض أرنولد توينبى رأيا قديما لباكون Bacon قال فيه : « ان الحروب الخارجية

مثل عملية التسخين التى تجعل الجسم مستعدا للرياضة ،
ووصف هذا الرأى بأنه أكثر الآراء سفسطة وتزويرا
للتاريخ . ان حروب القرن الثامن عشر ليست إلا ومضة
خاطفة وبخاصة بعد أن اخترعت الأسلحة وتطورت
صناعتها لتكون أكثر مقدرة على القتل والدمار ، يقول
جيتل Gettel : « لقد قامت حروب ضارية جعلت
المنهزمين وممتلكاتهم تحت رحمة المنتصرين ، حتىالديانة
فى هذه العصور كانت تبحث على استئصال أو استعباد
الشعوب المهزومة ، وحتى أجساد القتلى كان يحلو
للمنتصرين تشويهها ، أما الأسرى فقد كان يروق
للمنتصرين تعريضهم لأسوأ أنواع التعذيب ، وكثيرا
ما سجل المنتصرون أخبارهم فخورين ومتباهين بالفظائع
التى أنزلوها بأعدائهم » ان هذا واضح فى التاريخ اليونانى
الرومانى ونحن نعلم البربرية التى كانت تتسم بها حروب
رومانيا ، أما الاغريق فعلى حد تعبير فريمان « فقد كانوا
يتحاربون وكأنهم أعداء شخصيين » .

واذا كانت تلك هى النتائج المباشرة فناهيك عن
النتائج الغير مباشرة من تفكك سياسى وانحلال اجتماعى

وبؤس اقتصادي، لقد كانت الحرب بالنسبة للدويلة اليونانية الصغيرة دمارا شاملا لها ، وكان شبح الحرب دائما يهدد الحضارة اليونانية ، والحق يقال ان المفكرين الاغريق قد أحسوا بهذا الخطر وبكوا وتباكوا على دمار الحرب وبخاصة مفكرو أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد حيث بلغ الفكر والحضارة اليونانية قمتهما، لقد أدان كتاب المسرح الاغريقى الحرب وبخاصة شعراء التراجيديا اليونانية حيث يقول الشاعر المأسوى ايسخولوس ـ ذلك التقى الورع ـ « ان الحرب كالرجل المعتوه الذى يحاول أن يسخر من خلق الرب » وفاق الشاعر المأسوى الثائر المتمرد يوريبيديس سلفه ايسخولوس استنكارا للحرب حيث نقل الى المسرح دمار الحرب وخرابها وقد فعل ذلك بعقلية المثقف الذى يمثل نهاية عصر عظيم •

ولم يكن مؤرخو أثينا فى هذا العصر أقل احساسا بخطر الحرب وأقل ادراكا بمشاكلها ، فقد تخصص هيرودوت فى دراسة الحرب الفارسية اليونانية ، وهو عندما يتحدث عنها ، يتحدث بجدية وأسى أبعد مما عرف عنه من رومانسية وخيال فيقول هيرودوت : « لقد حل ببلاد

اليونان خلال الأجيال الثلاثة من عهود دارا وكسيركسيس وارتاكسركيس مصائب أكثر مما حل بها خلال العشرين جيلا التى سبقت دارا ـ كان بعض المصائب مسببا عن الفرس والبعض الآخر مسبب عن الصراع بين قادة اليونان حول السلطة العليا (١) •

والحق يقال ان أكثر التحليلات عمقا للحروب اليونانية يجيء بين سطور كتابات المؤرخ العلمى ثوكوديديس Thucydides مؤرخ الحروب البيلوبونيزية التى اشتعلت رحاها بين أثينا وأسبرطة والتى انتهى القرن الخامس قبل الميلاد بمصائبها وأهوالها ، وقد وصف كوكرين Cocraine تعليق المؤرخ ثوكوديديس عن الحرب : « انه من أشد الادانات والاستنكارات للحرب » اذ يقول ثوكوديديس عن الحرب : انها هم لا يزول وغم لا نهاية له (٢) •

وان القارىء للنصوص اللاتينية فى كتب قيصر وما رواه المؤرخ تيتوس ليفيوس ليجد أن التاريخ كله

---

(١) Herodotus, Book VI, 98.

(٢) Thucydides, Book III, 82, 2; Also Book I, 23 and

يدور حول الحروب والمعارك ، ويعتقد بعض المفكرين أن تعاقب الحرب والسلام ظاهرة لا يمكن انكارها بل يذهب بعضهم الى أن تعاقب الحـــرب والسلام أمر محتم كتعاقب الليـــل والنهار ، وهنا يجب أن نتوقف : إن مثل هــذا التشبيه تشبيه مغــالط فنحن لا نســتطيع أن نوقف تعاقب الليل والنهار ولا نستطيع أن نجد له علة انسانية أى ليس للانسان طرف فيها ، ولكن ظاهرة الحرب والسلام ظاهرة تقوم أساسا على قرارات يتخذها الانسان بنفسه ويحسمها بنفسه ، فوحدة «الليل والنهار» طبيعية ، أما وحدة « الحرب والسلام » فانسانية . كما أننــا لا نستطيع أن نأخذ برأى متشائم مثل رأى كريتون Greighton القائل « بأننا لن نستطيع أن نتخلص من الحرب » لقد سبق أن ذكرنا أنه من حــق المؤرخ أن ينصح ويحــذر مما قد يحــدث فى المستقبل ، أو ما يخبئه التاريخ ، ولكن ليس من قدرته أن يقدم نبوءة حاسمة ، حقا ان الدارس للتــاريخ اليــونانى الرومانى لا ينكر أهمية مكانة الحرب فى حوليات التاريخ وأن الحرب تنبعث من بعضها البعض وتتابع فى سلسلة من الأحداث التاريخية ، ولكن من الأفضــل على المؤرخ أن

يركز على عامل أكثر شمولاً من ظاهرة الحرب آلا وهو « السياسة » ، فالحكومات هى التى تعلن وتوجه وتنهى الحرب ، وقد حدد فيلسوف العصر برتراند راسل مهمة الحكومات الأساسية « بأنها ادارة الحروب وتحقيق السلام » عندئذ يحق لنا أن نعتبر التاريخ العسكرى جزءا لا يتجزا من التاريخ السياسى ، واذا قلنا ان الحرب هى جوهر التاريخ لجاز لنا أن نقول ان الحرب هى جوهر « التاريخ السياسى » فمشكلة السياسة هى كيف يتحقق السلام ، فاعلان الحرب من جانب الدولة يتأتى بعد دراسة وتفهم وتقدير للعوامل التى تسير بالأحوال السياسية من الحرب الى السلام ، وهو أمر يجب أن نشفق على الدولة منه ، وبالنسبة للتاريخ اليونانى الرومانى يجب أن نرفض مجهودات هؤلاء الذين يحاولون أن يقدموا لنا التاريخ اليونانى الرومانى على أنه سلسلة من المعارك ولا شىء غير ذلك بدون تحليل أو تفسير (١) ، لأن الواجب علينا أن نحلل كيف ولماذا حدثت الحروب فى العالم القديم ، ونبحث

(١) وهو للاسف الطابع السائد فى معظم الكتب التى تناولت التاريخ اليونانى بل والتاريخ الرومانى

عما اذا كانت هناك عوامل بعيدة تؤثر فى سير الحروب وعما
اذا كانت هناك قوانين اجتماعية أو بشرية تتحكم فى الحرب
أو تسبب فى حدوثها وعما اذا كانت هناك فرص لتفادى هذه
الحروب الدامية • ولا يستطيع المؤرخ أن يكون صادقا
مع الحقيقة لو نادى بالسلام المطلق الأبدى والعزوف عن
الحرب أيا كانت صورتها لأن ذلك لا يتماشى مع منطق
التاريخ ، فلو اعتدى معتد أو هدد بالاعتداء على ممتلكات
المواطن فانه لمن الواجب أن يهب المواطنون للدفاع عن
ممتلكاتهم لأن الاعتداء على الوطن الذى هو « الوحدة
السياسية » الكبرى للمواطنين هو فى الحقيقة اعتداء على
ممتلكات ومصالح أفراد المجتمع ـ فالحرب هى العلاج
الأخير الذى لايستخدم الا فى الحالات التى لا علاج فيها ،
ان السلام أو المناداة بالسلم لا يمكن أن يكون فعليا وفعالا
الا اذا التزمت به كافة الأمم ، اذا فالحرب دفاعا عن النفس
حقيقة مشروعة ، والحرب الدفاعية هى الحرب التى هدفها
حماية المواطنين وممتلكاتهم ونفوسهم بل حماية النظام
السياسى الذى يمثل هؤلاء المواطنين ، فموضوع الحرب
بالنسبة للمؤرخ هو البحث عن أى من الحروب كانت دفاعية

وأيها كانت عدوانية ، وعلى المؤرخ أيضا قبل أن يبحث فى حروب المجتمع اليونانى الرومانى أن يكون لديه مقياس يزن به الأمور أى الحروب كانت دفاعيـة وأى الجـروب كانت عدوانية ، ومعظم الحروب التى اشتعلت فى التاريخ اليونانى الرومانى كان واضحا فيها الجانب « المعتدى » ـ والجانب « المدافع » باستثناء حربين لا تزال المسئولية غـير محددة فيهما وهما الحرب البيلوبونيزية بين أثينا واسبرطة والحرب الأهلية بين قيصر وبومبى فى كلتا الحالتين لا يزال الغموض والاختلاف فى القاء المسئولية هو الشغل الشاغل للمفكرين المؤرخين(١) ـ أما عامة الحـــروب فقد كانت واضحة ومعروف نوعيتها ـ نعرف فيها من هو «المعتدى» ومن هو « المدافع » ولكن أحيـانا نجـد كلا من الطرفين المتحاربين يحركهما دافع «عدوانى» كما عالج التراجيديون الاغـريق على المسرح مشـكلة الصراع بين حق وحق ، وربما حدث ذلك فى حالات نادرة من الحروب ، وفى نطاق المجتمع يتبع عادة اعلان الحرب عاطفة توحد بين كافة

(١) أقصد الدوافع المباشرة. أما الأسباب البعيدة فهى معروفـة للدارسين .

الطبقات ونجد ذلك حتى فى الحروب العدوانية ، ولكن فى الحروب الدفاعية يوجد « المنطق » الذى لا تأويل فيه بوجوب الدفاع عن الحمى والشرف ، وفى حالات كثيرة من التاريخ القديم وبخاصة التاريخ الرومانى نجد « عاطفة المجد » أو بناء الدولة العظمى أو الامبراطورية هى الاحساس العاطفى الذى يسود فى المجتمع ، ويبرز ذلك فى كتابات المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الحرب والدفاع عن « عظمة الوطن » وهذا يضلل المؤرخ ويجعله لايعرف كيف يتبين عما اذا كانت هذه الحرب « عدوانية » أو « دفاعية » (١) .

ومن دراستنا للحروب القديمة نجد أنه من النادر أن قامت حرب بسبب « الدفاع » أو ما يسمى بالحرب المانعة Preventive war ، فقد يتطرق البحث عن أسباب الحرب ليشمل حروبا أعلنت لفكرة أخلاقية ، فمثلا نجد المؤرخ لاست Last يبحث عن عذر أخلاقى للتوسع الرومانى وهو نفس العذر الذى قدمه جيبون

(١) ولقد ردد مؤرخو النازى الالمانى نفس الشىء ويردده اليوم فلاسفة صهيون .

Gibbon وهو « أن الأمم الهمجية فى هذا العالم هى العدو الأكبر للمجتمع المتحضر»(١) .

كما أن أرنولد توينبى يقبل الحرب التى تعلن من أجل هدف أخلاقى أو من أجل العدل الاجتماعى ويعتبرها حرباً مشروعة ، ولكن مثل هذه التشريعات صعبة التطبيق بالنسبة للحروب فى العالم القديم ، واذا كانت كتب التاريخ تحفل بالمعتدين وما أنزلوه وسببوه من دمار وآلام للانسانية فانها كثيرا ما تقلل من قدر ما نال وما نزل بهؤلاء المعتدين من عقاب وجزاء ، ان ظاهرة الحرب العدوانية عامة فى التاريخ ولكن أيضا يشهد التاريخ بأن المعتدين لم ينجحوا فى عدوانهم فى النهاية ، ان فشل المعتدين فى ذلك راجع الى غبائهم لأن المعتدى دائما غبى ، كما أن الحـــرب أمر لا تعرف عواقبها ، فالذى يذهب ليدمر غيره كثيرا ماينتهى به الأمر بتدمير نفسه(٢) ، ويسجل لنا المؤرخ ثوكوديديس

(١) وهو منطق افلاطون وأرسطو في الدفاع عن الانتشار الاغريقى واخضاع الشعوب غير الاغريقية .

(٢) يؤكد المؤرخ تزمون هذا الرأى بالتفصيل ويضرب أمثلة عديدة على هزيمة الدول المعتدية . والتوسعية ويقول ان فرض الارادة العدوانية بقوة السلاح أمر مدان اخلاقيا ونفسيا ولأن الشعب المقهور لايعترف =

قول أحد السياسيين الاغريق فى جدل عن الحرب :
« يجب أن تقدر أحداث الحرب قبل أن تشعلها • فعندما يتقدم سيرها تصبح عملا متوقفا على الفرص والحظ » (١)، لأن الحرب فى طبيعتها دون سائر الأشياء لا تسير طبقا لقواعد محددة ••• فهى تقوم على القدرة على مواجهة أمر طارىء •• فهى تجبر الرجال أن يفعلوا أشياء لم تكن فى الحسبان أو كانوا لا يرغبون فى فعلها •• كما أنها تميل الى أحداث نتائج ليس للمنطق مكان فيها وهكذا اذا كانت الحرب فى جوهرها أمرا طارئا وشاذا لا يقوم على المنطق التاريخى فنتائجها غير متوقعة وغير منطقية وينطبق ذلك تماما على الحروب التى كانت تقوم بين المدن اليونانية التى

= معنويا بالهزيمة العسكرية ولايعتبرها نهائية وعندئذ يشرع فى المقاومة دفاعا عن تراثه التاريخى والاجتماعى المتمثل فى أرضه والقوة لا يمكن أن تفصل فى القضايا المعنوية • ويقول من الممكن لقوة معتدية أن تحتل بريطانيا ولكنها لن تستطيع الاحتفاظ بها ثم يسجل لنا الكلمات التى رددها نابليون ، وهو فى منفاه فى جزيرة سانت هيلينا وهى « ان السيف لايستطيع حسم شىء أبدا » انظر المرجع السابق ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ومن أشهر الكتب التى تشرح أوهام التوسعيين وبهاطة تكاليف التوسع والاستعمار ماديا ومعنويا كتاب نورمان انجيل The great illusion (الوهم الكبير) لندن ١٩١٠ •

(١) Thucydidies, Book IV, 59, 62

دمرت الكثير من جوانب الحضارة اليونانية ذاتها، ويصف Grundy هذه الحروب بأنها صراع انتحارى ناتج من الطيش وعدم النضوج الفكرى والسياسى(١) •

ان النقش الشهير الذى يسجل أسماء الاثينيين الذين سقطوا صرعى فى عام واحد (٤٥٩ ـ ٤٥٨ ق•م) يكشف لنا عن الحملات الحربية المختلفة التى قامت بها هذه المدينة فى قبرص ومصر وبلاد الفينيقيين ، كذلك سجل النقش أسماء سقطت فى الميدان الداخلى ، ومن الواضح أن هؤلاء الشهداء الاثينيين لم يضحوا بأرواحهم سدى بل دفاعا عن أثينا أو دفاعا عن أنفسهم ، ونحن نعلم من التاريخ أن أثينا تمتعت فى ذلك الوقت بطاقة سياسية واسعة النطاق ، اذا يمكن القول ان الحرب نتيجة نشاط الطاقة السياسة الموجودة فى بلد ، وفى وقت ما ، ومن هذه الحقيقة نبدأ تحليلنا لأسباب الحروب •

---

(١) وقد وصفها تزمرن بأنها « عملية قرصنة دولية » State-robbery تقوم بها دولة ضد أخرى ، انظر المرجع السابق ص ٢٤٥ ومابعدها

الفصل الثالث

أسباب قيام الحروب

أولا : الفوضى السياسية :

ترجع أسباب قيام الحـــروب فى العالم القـديم الى اضطراب النظام السياسى والى الفوضى التى كانت تعم العالم نتيجة لعدم وجود قانون دولى ينظم سلوك الدول تجـاه بعضها البعض (١) •

وترجع أسباب اندلاع الحـروب أيضـا الى الفوضى السياسية التى كانت تسود دويلة المدينة فى العـالم القديم ـ وبخاصة رغبـة بعض هذه المـدن فى التوسع واستيعاب المدن الصغرى المجاورة لها ، وربما كانت المشكلة فى العالم

(١) مثلما لجأت دول العالم الحديث بعد الحرب العالمية الاولى الى تكوين عصبة الأمم وبعد الحرب العالمية الثانية الى تكوين الأمم المتحدة ووضعت لها المواثيق التى تدين العدوان والتوسع •

القديم أكثر تعقيدا من العالم الحديث ففى عالمنـا الحديث يوجـد على الأقـل قـانون دولى يدين المعتـدى ويوقف العدوان وهذا أمر لم يكن متيسرا فى العالم القديم، أضف الى ذلك أن فى عالمنا الحـديث يوجـد « حق السيادة » المعترف به وهى الحدود السياسية للدول المختلفة والمعترف بها ، أما فى العالم القديم فلم يكن ذلك أيضا متيسرا •

ومن الغـريب رغم تقـدم العلوم الانســـانية عند الاغريق أنهم لم يكونوا على وعى كامل لمفهـوم « الدولة السـياسى » فعند أفلاطون وأرسـطو كانت الدولـة هى «المجتمع» وعندما قال أرسطو ان الانسان حيوان اجتماعى بطبعه كان يعنى ان الانسان حيوان سياسى بطبعـه ، وأنه بدون «المجتمع» لايعنى شيئاً(١) ، وثمة شىء آخر هو أن الاغريق وضعوا ولاءهم لواجبـاتهم السـياسـية فوق أى أخلاقيات ، ولهـذا انهمكوا فى حـروب كثيرة ، أما عند الرومان فقد تطور الفكر السياسى وعـرف الرومان معنى الدولة وسيادة الدولـة وذلك نتيجـة لتطور علم التشريع

(١) Cf. E. Barker, Greek Political Thought, London, 1960, p. 12 ff.

والقانون حيث تحولت عبادة المجتمع الى نظرية سياسية وهى عبادة الدولة (١) Cult of the State

وبنظرة عامة على التاريخ القديم يمكن تقسيمه الى حالتين :

(أ) حالة كانت فيها معظم الدول المتحضرة كبيرة •

(ب) حالة كانت فيها بعض الدول كبير وبعضها صغير •

ولنضرب مثلا على ذلك فى الألف الثالث قبل الميلاد ، نسمع عن عدد كبير من الدول الصغيرة المتحضرة، وفى نفس الوقت نسمع عن عدد كبير من الامبراطوريات، أما فى الألف الثانى قبل الميلاد ، فاننا نسمع عن امبراطوريات كبرى فقط كالامبراطورية المصرية أو الحيثية ••• الخ• وفى الألف الأخيرة قبل الميلاد نجد الموقف يعود الى الحالة الأولى حيث نجد العديد من المدن الاغريقية الصغيرة بينما يوجد فى الشرق الأوسط امبراطوريات واسعة • وفى نهاية هذا القرن يتغير الموقف مرة أخرى حيث حول الاسكندر

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٤ ومابعدها •

الأكبر ومن بعده روما العالم المتفكك الى وحدة سياسيه كبرى ، وعلى أى حال فقد سادت الفوضى السياسية فى كلتا الحالتين ، ففى أثناء وجود الامبراطوريات كانت « القوة » هى وحدة الفكر والتنفيذ السياسى (حتى لو استخدمت روما الدبلوماسية فان استخدامها كان مشفوعا بالتهديد بالقوة) ، والدولة عادة فى حاجة الى توازن بين قوتها السياسية وقدرتها على حماية قوتها السياسية (القوة العسكرية) ، وهذا يشرح السبب فى أن سوريا بقيت دائما فى الماضى منطقة عدم استقرار سياسى وذلك لأنها لم تكن تمتلك القوة الكافية لتؤمن نفسها ، ونفس الشىء نجده فى الولايات الهللينستية الكثيرة حيث سبب عدم وجود التوازن بينها الى نشوب الحروب مما أدى الى الفوضى السياسية والدولية ، ومما زاد الأمر سوءا انها كانت كلها متكافئة فى القوة فلم تستطع دولة منها أن تفرض ارادتها السياسية فرضا نهائيا مما تسبب فى بقاء الفوضى السياسية لمدة طويلة .

وحتى عندما حققت الدول الكبرى انتصارات ووسعت رقعتها فان الدولة المركزية أصبحت بعيدة عن أطرافها المترامية مما شجع فى كثير من الأحيان الى تمرد

الحكام الذين يعينون عليها(١) بل نجـــد بعض الحـــكام المتمردين يذهب بهم الأمر والجرأة الى اخضاع الامبراطورية نفسها ، فاتساع الرقعة في زمن كانت فيها أسرع وسائل الانتقال هي الجياد جعل حركة الجيوش بطيئـة ، هذا هو السـبب الرئيسى فى ســـقوط وتدهـور الامبراطورية الرومانية ، كما نجد فى حالات أخـــرى ضعف الحكومة السياسية يؤدى الى حركات انفصالية داخليـة أو تمـرد خارجى(٢) ، أما فى الوقت الذى انتشرت فيــه دويلات المدن فى بلاد اليونان فان الموقف لم يكن أقل خطورة .

ودعونا هنا نوضح كلمة دويلة المدينة City-state لقد أوضح العلامة فيلاموفتز Wilamowitz أن كلمـة مدينة ـ دولة تعبير خاطىء ، اننا لا ننكر وجود مدن فى هذه الحالات بعضها كبير وبعضها عواصم زراعية ، واننـا لا ننكر أن هذه المدن كانت تحكم رقعة زراعيـة حولهـا

---

(١) وهو أحد الأسباب التى أعزاها البروفسـور جونز لسـقوط الامبراطورية الرومانية . انظر :

A.H.M. Jones : Thoughts on the Decline of the Roman Empire, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. XXIII, Part I, (May 1960), p. 16.

(٢) Jones, loc. cit.

وهذه الرقعة الزراعية جزء لا يتجزأ من المركز الحاكم ، اذن فهى أشبه بدولة صغيرة ، ولذلك نجد التعبير الألمانى (Kleinstaat) أقرب وضوحا من التعبير الانجليزى City-state (١) • وأكثر من هذا فقد كان لدى الألمان نظام فى العهود القديمة وهو نظام الامارات الصغيرة التى أطلقوا عليها اسم Kleinstaaterei وهذا النظام كان أشبه بنظام الدويلات اليونانية الصغيرة ، وضيق المساحة هو أهم معالم الدويلات اليونانية القديمة ، فكل دويلة كان لها عاصمة واحدة ويحيط بها مساحة محدودة من الأراضى ، وكانت كل مدينة مكتفية بحدودها التقليدية وقلما حاولت مدينة توسيع أراضيها على حساب ضم مدينة أخرى ، أما مدينة أثينا فقد كانت ذات وضع خاص ، فقد كانت تمتلك مساحة شاسعة حولها قدرها ألف ميل مربع اذا ما قورنت مثلا بجزيرة كيوس Ceos التى كانت مساحتها ٦٥ ميلا مربعا وكانت مقسمة الى ثلاث دويلات مستقلة لكل منها عملتها النقدية الخاصة ودستورها الخاص ، ومما لا شك فيه أن العامل الجغرافى هو السبب الأول فى وجود مثل هذا التجزىء ، ولقد

(١) Cf. Barker, op. cit., p. 23.

ظلت المدن اليونانية تحرص على الحفاظ على حريتها واستقلالها من ناحية ، وممارسة سيادتها على أراضيها من ناحية ثانية ، كذلك حاولت أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتيا .

وقد أدت غيرة الدويلات اليونانية فى التمسك بهذه المبادىء الثلاثة المتناقضة فى بعض الأحيان الى وجود نوع من الفوضى السياسية ، فقد كانت بلاد اليونان مكتظة بالعديد من دويلات المدن المتجاورة وكان أقل احتكاك بينها يؤدى الى اندلاع الحرب وكان سبب الخلاف دائما هو النزاع على الحدود ، أو على بعض الأراضى الزراعية مما يؤدى الى اشعال حروب كبرى وأحيانا نجد هذه المدن الاغريقية المتصارعة تستدعي « قوة أجنبية » ، لتحالفها ضد مدينة اغريقية أخرى ، فمثلا : استدعت بعض مدن صقلية الاغريقية قرطاجة لأن الدبلوماسية الاغريقية كانت دائما هى الحرب ، وبالرغم من قدرات الاغريقى القديم الخلاقة التى نراها مجسمة فى فنونه وآدابه الا أنه فشل ذريعا فى « فن السياسة » وقد دفع الثمن باهظا .

لقد أدت غيرة الدويلة اليونانية فى أن تستقل بنفسها

الى محاولة جعل نفسها مكتفية ذاتيا رافضة التعاون مع غيرها ، وقد أدى ذلك الى كثير من العواقب الاقتصادية والسياسية ، فعدم وجودالاستقرار السياسى قيد الاقتصاد فى بلاد اليونان ، فأحيانا نجد مدينة غنية بالانتج الزراعى وتنتج بعض المحصولات التى قد تزيد عن حاجتها ، ولكنها لا تستطيع تصدير هذه الكمية الفائضة لأن كل مدينة كانت تحافظ على أن تكون مكتفية ذاتيا ، وبالرغم من أن المدن الاغريقية بنت تجارتها عن طريق سوق دولية فى البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط الا أنها قلما تاجرت فيما بينها ، اذا عدم وجود التفاهم والتعاون بين الدويلات اليونانية هو الذى كان يسبب الحروب (١) وكان تعادلها فى القوة العسكرية يحول دون وضع نهاية قاطعة لتلك الحروب •

لقد كانت الحرب بالنسبة لدويلة صغيرة شيئا باهظ الثمن وبخاصة لأنها دويلات محدودة القوى البشرية والاقتصادية وعلى حد تعبير جلبرت مورى : « لقد كانت الدويلة القديمة آلة حرب ••• ، ولكن لا تعمل

(١) Cf. Kathleen Freeman, Greek City-States, London, 1950, pp. 265-269.

جيدا ... » فمعظم الحروب اليونانية الداخلية لم تكن حاسمة من ثم فانها كانت تعود وتندلع ثانية . اذن يمكننا أن نقول ان الغيرة العمياء على حماية الاستقلال وعدم الرغبة فى الاندماج السياسى مع الدويلات الأخرى هو نقطة الضعف فى التاريخ السياسى اليونانى .

ولقد كانت أثينا تفوق جميع المدن اليونانية تقدما فى مجال الرياضة والفنون والآداب الا أنها فى نفس الوقت كانت تفوق كل المدن اليونانية أنانية وتمجيدا لذاتها ، ان المؤرخ ثوكوديديس كان وحده القادر على تصوير مأساة اليونان الحقيقية « وهى السياسة » ، واننا عندما نقرأ روائع الأدب اليونانى أو نشاهد بدائع فنه أو نتذوق أفكاره السياسية يجب ألا نقارن هذه الروائع بالسياسة اليونانية. فقد كانت السياسة الاغريقية بربرية أميل الى العنف ، خالية من كل المبادىء والأخلاق . وهذا يبين التناقض بين الواجهة الحضارية والواجهة السياسية ، لقد كانت السياسة والسياسة الخارجية بالذات هى نقطة الضعف فى ديمقراطية دويلات المدن ولا يوجد كاتب اغريقى واحد (سوى ايسوقراط فى القرن الرابع) اهتم بالسياسة الخارجية

وفكر ونادى بوجوب قيام وحدة بين المدن اليونانية • لأن الكتاب تمسكوا بالاستقلال والاكتفاء الذاتى •

ونلاحظ ذلك حتى عند المفكرين السياسيين أنفسهم فأرسطوا مثلا الذى عاش فى القرن الرابع ركز همه كله على السياسة الداخلية لأنه تمسك بشـدة بعنصر الاكتفاء الذاتى ، وأن على دولة المدينة أن تعتمد على نفسها دون افتراض التعاون أو حسن النية من جانب المدن الأخرى• لقد تبع أرسـطو معلمه أفلاطون فى افتراض أن الأغريق لا يستطيعون العيش بدون أى نظام سـوى نظام دويلات المدن ، وتغاضى أرسطو عن الحقيقة فى أن نظام المـدن المستقلة لم ينجح ، فهو لا يناقش ضعف النظام بل يفترض فيه الكمال (١) • لقد حدث فى عصر أرسطو نفسه فشل كبير للنظام الذى سارت عليه دول المدن عندما وصلت امارة مقدونيا الىأوج عظمتها، وأثبتت أن المدنالاغريقية المتنائرة غير قادرة على الوحدة أو التعاون أو العيش فى سلام فيما بينها حتى فى حالة وجود خطر يهددها من قوى خارجية ، ومن الغـريب أن أرسـطو كان من اتبـاع القصر الملكى

---

(١) Barker, op. cit., p. 19 ff.

المقـدونى وهو نفســه ينحـدر من مدينـة ستاجيروس Stagirus الواقعة على الحدود الأثينية المقدونية .
وعندما نهضت مقدونيا ظهرت الشـعلة الفعليـة فى تاريخ اليونان على مسرح الخطابة ، وذلك فى الخطب المعـادية المتبادلة بين ديموستنيس Demosthenes وايسـوقراط Isocrates فبينمـا أحس ايســـوقراط Isocrates بوجوب الوحدة وأن الوقت قد حـان لكى تندمج المـدن الاغريقية فى اتحاد عام حتى ولو كان تحت زعامة مقدونيـا وملكها فيليب نجد ديموستيس يمثـــل الأثينى المتعصب لنظامه التقليدى والمـدافع عن اسـتقلال المـدن سياسـيا واقتصاديا ، ولسنا هنا بصدد الوصول الى أيهما كان على خطأ أو أيهما كان على صواب ، فقد يقول مؤرخ : من حق الشعوب أن تختار نظامها السياسى الخاص بها لأن ذلك أمر تعكسه الطبيعة ولكنه فى نفس الوقت قد يقول مؤرخ آخر على الشعوب أن تتنازل عن نعرة الاستقلال التعصبية وأن تنصهر فى وحدة سياسية خاصة اذا كانت تنتمى الى جنس واحد لأن ذلك سوف يجنبها الكثير من المشاكل والأخطار بل يعوق النضـــوج الحضارى ، وهذا ما يراه أرنولد

توينبى ، اذن فوجود الامبراطوريات الشاسعة لا يختلف عن وجود المدن المستقلة المتصارعة فيما يختص بحظر قيام الحرب ، لأننا نجد الامبراطوريات تسعى فى بعض الأحين الى نفس المبادىء التى تسعى اليها المدن المستقلة وهى الاكتفاء الذاتى والاستقلال ، وبالنسبة للمدن اليونانية الصغيرة فوجودها على نفس الحالة التى عليها من تحفظ واستقلال وعدم الرغبة فى التعاون سبب قيام الحروب الكثيرة بينها ، ولم تحاول أية مدينة التنازل عن أى شرط من الشروط السابقة (الحرية والسيادة والاكتفاء الذاتى) ومن ثم فقد اندلعت الحروب واتسعت رحاها كما فى حالة الحرب البيلوبونيزية وأدت الى سقوط دويلات والى فشل الحضارة اليونانية فى فرض نفسها كقوة سياسية ، وهذا يفسره كلمة « الفوضى » (anarchia) الشاملة التى سادت بين المدن اليونانية ، ونحن لا نعتبر التحالفات المؤقتة التى قامت بين المدن اليونانية حلولا لهذه المشكلة لأنها كانت تحالفات عسكرية قامت لسبب واحد وانتهت بزوال هذا السبب مثل الحلف الدفاعى الذى أنشىء بعد غزو الفرس لبلاد اليونان ، وكذلك لاتعتبر بعض التحالفات

السياسية مثل الحلف الأيولى أو الآخى عنصرا من عناصر الوحدة لأن مثل هذه الاتحادات كانت تقوم بين مدن متنافسة متساوية فى الحقوق ومن ثم لم تتنازل احداهما عن أى حق سياسى من أجل قيام الوحدة الفعلية بل كان أشبه باتحاد الشركاء الذى سرعان ما يتفكك عندما ينشأ أول خلاف .

وعلى أى حال فقد كانت هناك محاولات من جانب الاغريق للقضاء على التنافر السياسى بين المدن اليونانية ، وتتمثل هذه الحالات فى التقدم الكبير الذى شهده العالم اليونانى الرومانى فى علم القوانين والتشريع ثم فى محاولات اقامة اتحادات سياسية بين المدن اليونانية ، اذن ففى دراسة القوانين القديمة فائدة كبيرة لدراسة التاريخ القديم ، لأن القانون هو تطور الفكر المنطقى عند الشعوب وكثيرا ماكان يعكس وجهة نظرها خارج حدودها ، لقد كان الاغريق أول من ربطوا بين القوانين وعلم الأخلاق ، فالديموقراطية عند الاغريق هى عدالة القوانين Eunomia وقد سبق للشاعر الفيلسوف هسيودوس أن أشار الى عناصر ثلاثة تتحكم فى عمل الانسان وهى : العدل ، والسلام

والتشريع السليم ، وعلى أي حال ، فقد أدى تقدم علم التشريع والقانون الى قيام نوع من الوئام الدولى ، فقلل من خطورة الفوضى كما قلل من خطر اندلاع الحرب ، وظهرت نواة القانون الدولى فى العصر اليونانى الرومانى وذلك كرد فعل لفض المنازعات بين الدويلات أو لتسهيل وضع شروط المعاهدات التجارية أو فى شكل تبادل المسئولين التجاريين بين الولايات المختلفة ، وقد أبرز القانون الرومانى أمرا هاما وهو اعترافه بأن الحرب يجب ألا تقوم الا لسبب عادل ، ويرجع الفضل فى تطور علم التشريع اليونانى الى مجهودات الفلاسفة الاغريق فى بلورة نظرية قانون الطبيعة أو القانون الطبيعى . وقد أسهمت الفلسفة الرواقية بقدر كبير فى ذلك لأنها آمنت بأهمية الأخوة بين الناس وأن القوانين ما هى الا املاء من الطبيعة على الناس وهى وليدة غرائز البشر واحتياجاتهم (١) . ثم نجد روما تعترف فيما بعد بحقوق للمواطنين الرومان وللايطاليين على السواء وهو ما سمته : ius genuium

---

(١) انظر : الدكتور عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ص ١٣٧ .

أى « حق البشر » أو حق « الجنس البشرى » • لقــد استفادت روما كثيراً من انتشار التفاهم على مستوى أكبر ومن الاعتراف بأن للانسان بعض الحقوق التى لا جدال فيها ، فوضعت نظاما تشريعيا يعتبر أثمن ما خلفته الحضارة الرومانية لعالمنا الحديث • والحضارة الرومانية تزخر بأسماء عديدة من الفقهاء والمشرعين لا داعى لذكر أسمائهم •

وبصرف النظر عن التقدم فى علم التشريع والتقنين على أساس انسانى ، فقد مر التاريخ اليونانى الرومانى بتجربة سياسية قلما يشار اليها وهى تبادل حقوق الجنسية بين مدينة ومدينة أخرى أو بين أكثر من مدينتين ، اذ أصبح من حق كل فــرد أن يتمتع بأكثر من جنسـية ، ممـا ســـاعد على الخروج من دائرة التعصب للدويلة الى دائرة أكبر والتمتع بحقوق على مســـتوى أكبر من المـدينة الدويلة وأحيانا نجد أمثلة حيث منحت دويلة حقوق المواطنة فيها لدويلة أخرى بكامل سكانها ، كان ذلك تمهيدا للقضـاء على الخلافات التى سببت اندلاع الحــروب وبداية لتكوين حلف يجمــع بين أكثر من مدينـة واحــدة على أساس تشريعى ثابت وفى هـــذا أيضا تجنب لاندلاع الحروب

وهذا يقودنا الى الحـــديث عن الاتحادات الفيدرالية التى نشأت بين مدن اليونان المختلفة .

لقـــد عالج E.A. Freeman فى بحث قيم فكرة قيـام الأحلاف أو الاتحادات الفيدرالية عند الاغريق وذلك بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل وبالرغم من أن هـذا البحث يعتبر عملا رائعا الا أنه منذ ذلك الوقت لا نجد من يكمل هذا البحث أو يزيد عليه(١) ، لقد ركز فريمان على قيام الاتحاد الآخى والاتحاد الأيولى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ولكنه أهمل المحاولات المبكرة التى قامت من أجل انشاء تحالفات ، مثل محاولة طيبة فى توحيد اقليم بؤتيـا ومحاولة مدينـــة اولينثوس Olynthus فى اقامة نواة اتحادية حولها منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد يستطيع الدارس الاستفادة من دراسة النقود اليـونانية التى تلقى أضواء أكثر على تتبع وجود الأحلاف السياسية بين المدن اليونانية لأنه عند قيام الوحدة تتوحد العملة ، والمثل على ذلك واضح فى حلف مدينـــة Lycia جنوب هضـبة

(١). Cf. E.A. Freeman : History of Federal Government, 2, History of Federal Government in Greece and Italy (edited by J.B. Bury), London, 1893.

الأناضــول وقد اعتبر العــلامة الفرنسى مونتيســكيه Montesquieu حلف ليكيا المثل الأسمى للاتحـاد ، اذ أشار الى أن مندوبى الحلف كانوا الممثلين الحقيقيين للعناصر السكانية التى تكون منها الاتحاد ، ويمكن أن يجادل بعضهم بأن أهل ليكيا لم يعتبروا اغريقا حتى فى الوقت الذى كان فيه حلفهم فى قمة اكتماله ، ولكن فى مثـل هذا العصر – العصر الهللينستى – لم يعد الجنس هو الذى يحدد الهللينية بل الثقافة ، فمثلا كان المقـدونيون أساسا غـير اغريق ولكنهم أصبحوا فيمـا بعد اغريقـا عن طريق الثقــافة والحضارة ، وعلى أى حال ، حقق أهل ليكيا نظاما وحدويا كاملا وممثلا خـير تمثيل ، كما نجــد فى نفس الوقت محاولات وحدوية فى سهل لاتيوم بروما بين الشــعوب اللاتينية بدأ منذ القرن السادس قبل الميلاد وربما كان ذلك دليلا على وجود نوع من التفهم والنضوج السياسى بين هذه الشعوب اللاتينية ، كل هــذه العوامل – من تقدم فن التشريع والتقنين على مستوى أكبر من الدويلة والاتجاه نحو اقامة الاتحــادات الفيدرالية بين المــدن الاغريقية ومحاولات تلك الاتحادات فى تبادل الجنسيات السياسية –

أفاد الامبراطورية الرومانية فيما بعد فى تحقيق نظام مركزى فمنحت الشعوب المختلفة حكما محليا وبذلك تجنبت أخطاء الولايات اليونانية ونجحت فى تحقيق سلام دائم وعادل ساد ردحا من الزمن .

اذن فدراسة الظروف السياسية عند قيام التحالفات أو الاتحادات الفيدرالية هى جوهر التاريخ اليونانى الرومانى لأن ذلك العامل لا يتوفر فى أى منطقة أخرى من مناطق العالم القديم بقدر ما يتوفر عند الاغريق الرومان ، وربما اتجه الاغريق الى الاتحادات الفيدرالية **Federalism** بدافع من الاكتفاء الذاتى الأشمل **Autarchia** ولكن روما أسهمت فى قيام الفيدرالية عن طريق تقدم العلوم السياسية ، كما استطاعت عن طريق بلورة النظرية السياسية للتاريخ السياسى من أن تقضى على الفوضى بين المدن اليونانية بالرغم من أنها لجأت فى تطبيقها للقوة . وهكذا لجأت روما الى القوة فى النهاية لأن قيام الأحلاف بدافع الرغبة لم يتحقق ، وفى الحقيقة نجح استخدام القوة فى تحقيق السلام والوحدة السياسية مهما يقال عن هذا المبدأ ومهما يهاجمه بعض المؤرخين من الناحية الأخلاقية ،

استطاعت روما أن تحقق السلام الرومانى وأن تقضى على اندلاع الحروب الذى ظل ظاهرة مقلقة على مدى التاريخ اليونانى كله ، وباستثناء بعض الحروب التى خاضتها الامبراطورية الرومانية ـ ساد السلام ابان القرنين الأول والثانى الميلادى وبهذا وضعت روما حلولا لمشكلة عانت منها الحضارة اليونانية كثيرا ، ومن الجدير بالذكر أن فلسفة الادارة والحكم اللتين ظهرتا فى عصر الامبراطورية الرومانية لم تكن من خلق اليونان والرومان وحدهم بل أسهمت فيها دويلات الشرق الأوسط القديمة على طول حضارتها وضربت أمثلة استفاد منها المفكرون السياسيون من الاغريق والرومان ، ففى عام ٣١٨٨ قبل الميلاد استطاعت مصر أن تقيم وحدة سياسية راسخة بين شطريها الشمالى والجنوبى ، وبالرغم من اختلاف الأجناس التى سكنت هذين الاقليمين استطاعت مصر أن تحقق وحدة سياسية وتقيم دولة متحدة مركزية تحت التاج الملكى المقدس، كما حدثت حركات وحدوية مماثلة فى بلاد سومر وبابل وأشور ، وفى الألف الثانية قبل الميلاد ضربت مصر مثلا آخر عندما أنشأت امبراطوريتها وأرسلت مفوضيها الى

البلاد التى كانت تحكمها فى حوض البحر المتوسط ، وفى بابل كتب حمورابى موسوعته القانونية الشهيرة كذلك قدمت بابل أمثلة عديدة فى الادارة المالية ، كما قدم الحيثيون نموذجا لتنظيم شئون الامبراطورية الداخلية بينما قدم أهل كريت نموذجا لتنظيم شئون الامبراطورية البحرية ، كما شارك فى ذلك الموكينيون والفينيقيون الذين حولوا البحر المتوسط الى مركز تجارى وثقافى بحرى ، أما الآشوريون فقد أسهموا بتقديم نموذج للتنظيم العسكرى كما كانوا أول من قسم الامبراطورية الى ولايات قومية صغيرة تم ربطها عن طريق الطرق العسكرية الضخمة أما الامبراطورية الفارسية فقد قدمت نموذجا للادارة الانسانية تحت حكم قورش ودارا ، وبذلك حققت أمنا وسلاما استطاع خلاله الفلاسفة الأيونيون الذين كانوا يعيشون تحت حكم بلاد الفرس أن يمارسوا حريتهم كاملة سواء فى النقاش أو التفكير فوضعوا الأسس الأولى للفلسفة اليونانية ، هكذا استطاعت روما أن تستفيد من كل هذه التجارب السياسية التى مرت بها بلاد الشرق الأوسط ثم أضافت اليها محاولات الاغريق فى تحقيق الوحدة

الفيدرالية وتبادل الجنسيات .... الخ . ثم تمكنت بعد ذلك كله - من أن تخلق امبراطورية قوية واحدة فرضت سيطرتها على العالم كله .

ويحق للمؤرخين أن يطلقوا على الامبراطورية الرومانيه صفة العالمية لأنها حاولت أن تترجم تأملات وأقوال أصحاب المدرسة الرواقية الى حقائق سياسية ، فحققت السلام العالمى (أو السلام الرومانى) الذى ظل سائدا منذ عصر أغسطس حتى بدأت المتاعب تطفو من جديد بسبب ازدياد خطر بلاد الفرس فى عصر الأسرة الساسانية وبسبب الخطر الذى هدد الرومان على أيدى سكان باراثيا وبرابرة الشمال ، ويمكن أن نوجز أفكارنا فى عبارة واحدة « ان السلام الرومانى وفر على كثير من الدول غير الرومانية مهمة انشاء وحدة فيدرالية تجنبها من الصدام والحروب » .

ثانيا - النزعة العنصرية والتعصب الوطنى :

لقد تبين لنا من مناقشة أسباب اندلاع الحروب أن السبب الأول كان يكمن فى عدم تبلور ونضج الفكر

السياسى عند الاغريق أنفسهم ، وكيف أنهم تأثروا بنزعة التعصب الأعمى لنظام المدن الدول ، ثم استطاعت روما أن تستفيد من حقل التجارب الكبير الذى مرت به بلاد اليونان ودول الشرق الأوسط فى ميادين الوحدة والادارة واستطاعت - بفضل تطور علم التشريع وبفضل مشاركة المدارس الفلسفية - أن تقيم هيكلا سياسيا ضمن استتباب الأمن والسلام .

والحقيقة أن تعصب المدن اليونانية لاستقلالها كان نتيجة لظاهرة ثانية ألا وهى نزعة التعصب العنصرية القومية عند الاغريق ، وهى فى الحقيقة مشكلة عامة فى التاريخ البشرى كله ، وهى أيضا مشكلة نفسية أى تختص بدراسة النفس البشرية ، ولهذا بدأت المدرسة الحديثة فى التاريخ تنادى بضرورة الاستفادة من علم النفس بل يحاول بعض الأساتذة تكوين علم جديد وهو علم النفس السياسى Political Psychology (١) لأن علماء النفس يرون أن الحروب تصدر من الانسان بدافع الغريزة ، اذ

(١) Cf. Bruce Mazlish (editor), Psychoanalysis and History, New Jersey, 1963, p. 1 ff. (Introduction).

مصدرها غرائزى فى الانسان نفسه، ويقول برتراند راسل فى ذلك : « ان الانسان بدافع الغريزة يقسم الناس الى أصدقاء يحالفهم وأعداء يحاربهم ، والذين يقـولون ان تصرفات الانسان عبر العصور وليدة المنطق والعقل تخطئون فى ذلك بلا شك ، لأن المنطق وحده لا يحكم تصرفات الناس بل يشترك فى ذلك العامل العاطفى النفسى . وقد هاجم كثير من الفلاسفة القدامى والمحدثون « الانسـان » لهذا السبب ووصفوه بأنه «شرير» ونسمع عن كثير من العبارات مثل « نظرية الصراع السياسى » أو «قانون الغاب» ومن ثم-طابق علماء النفس فكرة أن الانسان عدوانى بطبعه على الدولة وهى النظام الذى يجمع الناس . وقد قال أحد الفلاسفة الأيونيين الذين عاشوا فى القرن السادس قبل الميلاد ــ واسمه هيراكليس من مدينـــة افسوس ــ قولا مأثورا وهو : « ان الحرب مصدر كل شىء ومالكة كل شىء ، وأن الصراع هو جوهر الحياة » . وكذلك نجـد أفلاطون الذى كرس جـزءا كبيرا من أبحـاثه وكتـاباته للشئون الداخلية للمدينة اليونانية يرى أن الحرب حتمية فيما يختص بالعـــلاقات السياســـية الخارجية بين الدول

اليونانية (١) • وقد أيد ذلك خطباء أثينا الذين ظهروا على مسرح الأحداث السياسية قبل سقوط استقلال أثينا على يد فيليب المقدونى ـ مثل ديموستنيس وايسوقراط ، وفى الحقيقة فان هذين الخطيبين كانا يعبران عن وجهة نظر سادت بلاد اليونان وهى أن الحرب ظاهرة عادية فى الحياة السياسية وأن الحرب والسلام كالشمس والمطر ، أى أن الحرب والسلام كتقلبات الجو فى الطبيعة (٢) •

ونتيجة لهذه الفكرة فقد آمن الاغريق بأن سيطرة القوى على الضعيف أمر طبيعى وأن من حق الأقوى أن يحكم الأضعف ـ ويظهر ذلك بوضوح فى الأدب اليونانى القديم ، وقد عبر عن هذه الفكرة الشاعر الاغريقى بندار من الناحية العاطفية ، أما المؤرخ ثوكوديديس فقد فلسفها فى حوار جدلى ونطق به على لسان سياسى أثينى يخطط لتدمير دويلة جزيرة ميلوس المتمردة فيقول على لسان هذه الشخصية التى تبرر عدوان أثينا على ميلوس « ان العقيدة تجعلنا نؤمن والمعرفة تجعلنا نعرف ـ أن الآلهة والناس ـ

(١) Barker, op. cit., p. 193 ff

(٢) Zimmern, op. cit., pp. 245-246

بدافع حتمي نابع من طبيعتهم ـ يميلون الى السيطرة والتحكم كلما أتيحت لهم الفرصة ، وليس لدينا الا أن نستغل هذه الظاهرة جيدا لأنكم يجب أن تعلموا أنكم أو غيركم سوف يفعل ما نفعل لو تحقق له نفس القوة»(١) •
وبالرغم من أن تدمير ميلوس كان صدمة عاطفية فى التاريخ اليونانى الا أن أرسطو لم يستنكر هذه المأساة بل كتب عن الحرب يقول : « ان فن الحرب مهارة طبيعية للسيطرة والتملك ، انها مثل فن الصيد وهو فن اعتاد الناس على ممارسته ضد الحيوانات المفترسة وضد الناس الذين لا يرضخون لهم بالرغم من أن الطبيعة شاءت لهم أن يكونوا محكومين بواسطة الغير ، والحرب بسبب هذا املاء من جانب الطبيعة(٢) • ومن الغريب أن نفس النظرية جاءت عند ميكيافيللى عندما برر محاولات التوسع من جانب الدول بأنها أمر طبيعى ، اذ وجهة نظر الاغريق هي أن الانسان « حيوان مقاتل » منذ البداية • وليس حيوانا اجتماعيا فقط ، وان الناس منذ الأزل يبغون السيطرة عن

(١) Thucydides, V, 105

(٢) Cf. Aristotle, Politics, 1256.

طريق القوة والعنف ، ويذهب بعض الفلاسفة المؤرخين الى أن رسالة السلام لابد أن تبحث فى استغلال طاقة الصراع الغريزى فى نفس الانسان وتحويلها الى مجال سلمى ، فمثلا لعبت المباريات الرياضية بين بلاد اليونان دورا كبيرا فى اقامة حوار اجتماعى وثقافى بين هذه المدن المتنافرة . ولكننا لا ننسى أن كثيرا ما ظهر حب البشر للعنف وسفك الدماء حتى فى هذه المباريات وبخاصة عند الرومان ، وأن الأباطرة الرومان اهتموا اهتماما كبيرا بمثل هذه الرياضة لسبب نفسانى وهو صرف نظر مواطنيهم عن ممارسة العنف سواء على الصعيد السياسى أو العسكرى وكمحاولة للتنفيس عما يجيش فى نفوس مواطنيهم ، اذ الحرب فى نظر بعض المؤرخين تنفيس نفسانى لغريزة « العدوان » الموجودة فى نفوس الناس ، ولكن برتراند راسل يرفض هذه النظرية بقوله : « ليس هناك ما يبرر الاستمرار فى هذه البربرية » .

ويخرج المفكرون من تحليل الفرد الى تحليل الأمة على نفس الأسس، فالحكومات ماهى الا كالفرد تحس بنفس احساسه ولها أخطاؤه ومزاياه ، وبعض الحكومات تندفع

نحو الحروب بدافع جنون الجماهير نحو الحرب أو مايسمى بهستيريا الحرب وهستيريا الجماهير وبخاصة فى حالات الحروب العدوانية ، بصرف النظر عن الجانب الأخلاقى الذى قلنا انه عامل ثانوى فى أحداث التاريخ .

وعادة ماتشعل الحروب العواطف الوطنية ، وقد قيل ان الوطنية هى الغذاء الروحى للحرب كما أن السلاح هو غذاؤها فى ميادين القتال ، وحب الوطن دافع غريزى فينا ، والحرب الدفاعية ما هى الا نوع من أنواع الوطنية القتالية ، ورسالة الوطنية القتالية هى الدفاع عن مصالح الفرد ونظامه السياسى ضد قوى الشر والعدوان ، ولكن هناك نوعا آخر من الوطنية وهى الوطنية العنصرية وهى وطنيات أو مقومات عدوانية تقوم أساسا على الاستعلاء العنصرى ، وسرعان ما تترجم هذه العاطفة العنصرية الى عنصرية قتالية عدوانية ، ومن هنا تنبع الحرب العدوانية والتاريخ اليونانى الرومانى ملىء بمثل هذه الأمثلة لأنه ملىء بالحروب العدوانية ، وهو حقل تجارب قد يساعد الباحث فى التاريخ على تفهم النزعات العدوانية الحديثة التى يشهدها عالمنا المعاصر مثل الحركة الفاشية والنازية

والصهيونية ، وقد يكون الباعث لهذه القوميات العدوانية تعصب ديني أو عنصري أو تعصب لنظام أو مبدأ سياسي معين ، ويبدو لقاريء التوراة أهمية العامل الديني في الحروب التي خاضها الغزاة اليهود ضد أهل فلسطين الأصليين ، حيث يجاهرون وكأن انتصارهم انتصاراً لدينهم على دين الفلسطينيين، ولماذا نذهب بعيدا ألم يصور الشعراء الرومان انتصارهم على الملكة المصرية كليوباترا بأنه انتصار لآلهة التيبر على آلهة النيل (١) ؟ وفي الحقيقة لم يكن الدافع للعنصرية العدوانية عند العبرانيين هو التعصب الديني فحسب بل الاستعلاء العنصري أيضا الذي يظهر في ادعاء العبرانيين بأنهم شعب الله المختار، وعلى المؤرخ أن يعالج مثل هذه العنصرية مجردة عن دوافعها الدينية فهي «عنصرية» لا أكثر ولا أقل وهي ظاهرة عامة في التاريخ سواء حديثه أو قديمه (٢) .

---

(١) لقد جمع الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي ، هذه الأشعار وترجمها الى العربية في كتابه الشيق « مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية » دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٩ ـ ٤٠ .

(٢) وهو نفس الادعاء الحديث ، الذي تقوم عليه الصهيونية في كتاب هرتزل « الدولة اليهودية » .

والعلاقة بين «العدوان» و «العنصرية» وثيقة الصلة، اذ أن كلا منها يؤثر فى الآخر ، والدافع للعنصرية دافع نفسانى يكمن فى الاحساس بأن « الأجنبى عدو» (١) ، والتمسك بالجنس والدم وتقسيم الشعوب الى أجناس سرعان ما يولد التنافر بينها ، وقد تتخذ غريزة (الصراع) أو (القتال) الشكل العنصرى ومن ثم تتولد الحرب العنصرية ، ويتهم المؤرخون العبرانيين بأنهم المسئولون الأوائل عن اشعال نار القومية العنصرية فيقول مايكل جرانت(٢) بالحرف الواحد: « ان مجتمعنا الحديث لم يرث من اليهود الأخلاقيات التوحيدية الكبرى التى قدر لها أن تنتشر ، بل توارث عنهم أيضا العنصرية التى كانت نتاج نعرتهم الدينية ، وقد اتخذ هذا العامل الأخير منذ البداية الشكل العنصرى وهو أمر مختلق اذا ما راعينا أن اليهود فى تكوينهم جنس غير خالص بل مختلط ، فاليهود لا يعتبرون أنفسهم فقط شعب الله المختار بل انهم الجنس

(١) كلمة عدو فى اللغة اليونانية هى اخثروس echthros وهى تعنى فى نفس الوقت الأجنبى بينما تعنى كلمة كسينوس Xencs الغريب (ولكن من نفس البلد) وفى نفس الوقت تعنى الضيف .

(٢) Cf. Michael Grant, Ancient History, Home Study Series, Methuen a Company, London, 1952, p. 194.

البشرى المختار » • أضف الى ذلك أن حـركة التبشـير اليهودية قد نجحت فى ضم أجناس غير عبرانية الى الدين اليهودى وبخاصة بعض القبائل الأوروبية التى ينحدر منها اليهـود المعـاصرون الأوربيـون الذين يطلق عليهم اسم «الاشكنازيم» اذن فقد كانت نعرة اليهود الدينية والعنصرية دافعاً ومسبباً لحروب عدوانية ضـد الفلسـطينيين القدماء والمعاصرين •

وكثيرا ما نجد حالات تخوض فيها أمم الحرب وراء الملك ومن أجل الملك ودفاعا عن جنس الملك الذى كان يعتبر دفاعا عن دينهم فالملوك عند المصريين كانوا آلهة ، كمـا يدعى الاغريق أن جدهم الأول أيون Ion كان ابن الاله أبوللون ، وكذلك نجد نفس الاحساس عند الرومان عندما آمنوا بأن رومولوس Romulus جـد الرومان ومؤسس مدينة روما سليل الربة ڤينـوس والرب مارس اله الحرب ، وقد ادعى ملوك البطالمة فى مصر أنهم من سلالة الالهة (بغض النظر عن ادعائهم انهم من سلالة الاله آمون لكى ينتزعوا احترام المصريين) فقـد ادعى بعضهم أنه ينخرط من سلالة هيراكليس البطل الاغريقى

كما ادعى بطليموس السادس أنه سليل الاله ديونيسوس، بل مارس البطالمة عادة زواج الأخ بالأخت حفاظا على نقاء السلالة الالهية الحاكمة كما فعل فراعنة مصر من قبل ، ثم نجد نعرة الانخراط من جنس أو سلالة مؤلهة تخرج من نطاق الفرد الحاكم الى نطاق الشعب بأكمله عندما يعلن قوم أنهم ينحدرون من سلالة شخصية معينة ، فقد ادعى الدوريون بأنهم ينحـــدرون من سلالة هيراقليس البطـل الأسطورى الاغريقى وبرروا حربهم العدوانية ضد أهل البيلوبونيز الأصليين بأنها حرب مشروعة وسموا غـزوهم لهـذه المنطقة « بعـودة أبنـــاء هيراكليس » اذن نجـد الاستعلاء العنصرى يسود بعض دوائر المـدن الاغريقيـة ويساعد فى تعصبها وكبريائها . واذا كان الغزاة القاهرون يجدون مبررا لأنفسهم فى قهر الشعوب واحتلال أراضيها فان الشعوب المقهورة سرعان ما تدعى لنفسها أيضا نعـرة قومية على أساس أنهم أهل البلاد الأصليين وأنهم وجدوا على الأرض منذ وجودها أى منذ العصر الذى كانت فيه الالهة تســـير على الأرض(١) ، ولهذا نسمع فى اللغـة

(١) مثلما ادعى أهل ميسينيا التى استعبدها الأسبرطيون بأنهم وجدوا فى بلادهم منذ أن وجد القمر .

اليونانية عن لفظ autochtonous أى من أهل البـــلاد الأصليين ـ فمثلا نجد أهل منطقة كاريا فى جنوب غرب آسيا الصغرى وأهل سيكانيا فى غرب جزيرة صقلية ـ يدعون أنهم أصحاب الأرض الأصليين ، ونفس الاحساس نجده عند الأثينيين اذ أنهم ادعوا بأنهم لم يغزوا آتيكا كما فعل الاسبرطيون والدوريون بل سكنوها منذ البداية وأن جحافل القادمين من الغَزاة لم تدنس أرضهم ، ولقد ناقش الشاعر يوربيـــديس قضـــية التعصب على أساس الادعاء بالأصالة الموطنية على المسرح بفلسفته الساخرة وبخاصة فى مسرحيته « أيون » البطل الأسطورى ابن الاله أبوللون الذى ادعت أثينا أنه جدها الأول ، اذ نجد هــذا الشاعر الفيلسوف الذى كتب هذه المسرحية وسط مأساة الحروب البيلوبونيزية يســتخدم العقل والمنطـــق فى تحليله لهذا الادعاء (تماما كما فعل المـــؤرخ ثوكوديديس فى تبيانه للقوى المستعلية التى تسبب النعرات والقوميات العنصرية العدوانية) فهو يظهر أبوللون وأيون كشخصية مستهترة تعيث فى الأرض فسادا وتكاد تقطر أنانية وصلافة ، وهو تحليله للمعتدى الذى يبرر عدوانه بأسطورة دينية مختلقة.

وأيضاً نجد الاحساس بالنعرة القومية يخرج من حدود الدولة الى حدود الجنس الشامل فقـــد أحس الاغـــريق عامة باستعلاء عنصرى عندما اعتبروا كل من ليس اغريقيا « بربرى » أو أجنبي ولكن يجب أن نبـــين أن عنصرية الاغريق كانت سياسية ثقافية أكثر منها دينيـــة على خلاف اليهود ، لأن نعرة الاغريق القومية لم تظهر الا فى حالات الخطر العام مثلما حدث عند غزو الفرس لبلاد اليونان ، وذلك نابع أصلا من ولاء الاغـــريق لدولة مدينته وحبه لفكرته عنها ، اذ لم يكن الاهتمام عند مجموعة صـــغيرة من الناس البسطاء فى بلاد ذات مناخ معتدل يدور حول المال أو الزواج بل حول المـــدينة « الدولة » ولذا تطور الوعى القومى عند الاغريق سريعا ويظهر ذلك الاحساس فى الخطبة التى نقلها لنا ثوكوديديس على لسان بيريكليس زعيم أثينا ابان الحروب البيلوبونيزية فيذكر لنا كيف أن الأثينى يضحى بجسده فى خدمة مدينته كما لو كان هذا الجسد ليس له ، وفى نفس الوقت يستخدم عقله للدولة كما لو كان لنفسه (١) .

---

(١) Thucydides, II, 42.

وقد يتساءل الباحث عن أسباب اندلاع الحروب في أثينا خلال القرنين السادس والخامس والرابع قبل الميلاد • وعن دوافع الحماسة والعاطفة لهذه الحروب والحماسة لنظام الأثينيين السياسي أو ما سموه « بالديمقراطية الأثينية » والديمقراطية الأثينية تختلف اختلافا كبيرا عن النظام المعاصر الذي يتخذ هذا الاسم اذن لم يكن نظام الحكم نظاما تمثيليا برلمانيا ، أي لم يكن للشعب ممثلون عنه بل تعني أن المواطنين الأحرار يتمتعون بحق حضور المجالس الشعبية التي لا ينتخبون لها أعضاء (وكذلك كانت نظرة الرومان السياسية) فكل مواطن اغريقي بحكم وضعه السياسي ـ هو عضو في هذه المجالس التي قامت بجزء كبير من ادارة الدولة ، وكان للمجلس الشعبي أو الأكليسيا ecclesia سيادته المستقلة ولم يكن كل عضو حريصا على حضور اجتماعات هذه المجالس ولكن عندما أدخل «نظام الأجر » لحضور الجلسات حرص عدد كبير من المواطنين على حضور هذه الجلسات ـ وقد أدخل ذلك ضمن تدعيمات بيريكليس الديمقراطية الأثينية في الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد •

وبالرغم من الدعاية السياسية الضخمة التى بثتها أثينـا عن ديموقراطيتها واستغلالها لهـــذه الدعاية فى حبها ضد الاسبرطيين الا أن النظام الاسبرطى ، الدكتاتورى الجماعى لم يختلف كثيراً فى الجـــوهر عن النظام الأثينى المسمى بالديمقـــراطى بل ربما اشتق الأثينيـــون نظـــامهم من الاسبرطيين ، لأن فى كلتا الحالتين نجد نوعا واحدا من المواطنين يتمتع بحقوق وامتيازات وهم الأحـــرار الأثينيون فى أثينا والسادة الاسبرطيون فى اسبرطه ، وقـــد غالطت الدعاية الأثينيـــة الحقيقـــة عنـدما اتهمت اسبرطة بالنظام الدكتاتورى الجماعى لأنها حرمت أهل البلاد الأصليين من كل شىء بينما منحت جماعة الاســـبرطيين الأســـياد كافة الحقوق .

وفى الحقيقة نجد أن الديمقراطية الأثينية قد فعلت نفس الشىء (وسوف نناقش ذلك فيما بعد) لأن مجلس الشورى أو الجمعية العامة كان يتألف من هـــؤلاء الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة فقط ، وكانوا أقلية بالنسبة لغالبية السكان وقد ذكر أفلاطون أن العدد المثالى لأعضاء مجلس الجمعية العامة هو ٥٠٤٠ عضوا فقط . اذن فهـــو

حكم « أقلية الأغلبية » ومثل هــذه المجالس المخصصة
للأقليات وجدت فى حضارات كثيرة سالفة لحضارة اليونان
كالحضارة المينوية فى كريت ، وعلى أى حال فقــد كان
هؤلاء المواطنون الأحرار هم جسد الأمة الأثينية وهم
الذين تشتعل قلوبهم بالغيرة والقومية والوطنية من أجـل
مدينتهم ، حتى أن الفرس أنفسهم علتهم الدهشــة لطاقة
هؤلاء المواطنين الزائدة عن الحد ، فيسجل لنا هيرودوت
همس أحد أمراء الفرس الى مسئول اسبرطى يعبر فيـه
عن سخطه واحتقاره « لهؤلاء الذين يجتمعون فى السوق
العامة لكى يخادع كل منهم الآخر بالأكاذيب والوعــود
الخاوية(١) » كما سجل لنا أيضا ملاحظة أمير فارس عن
جمهور المواطنين فى أثينا بقوله : « انهم يتدخلون بجنون
فى شئون الدولة وكأنهم تيار نهر فاض شتاء وقلب الأشياء
رأسا على عقب » اذن فالجمهـرة الغـوغائية كانت صلب
نظام الحـكم الأثينى حتى أن أكثر الحـكام الأثينيين ميلا
للديمقراطية وهو كليون ـ لم ير فى « التجمهر » مقدرة
على الحكم أى لم ير فى المجلس العام قدرة على حكم البلاد.

---

(١) Herodotus, I, 153

ونجد أفلاطون عندما يسجل لنا قائمته عن نظم الحكم الانسانى يورد ديمقراطية الأثينيين فى نهاية القائمة لأنه أشار الى خطورة الانحراف اذا ما أسىء استخدام الديمقراطية لأنه من السهل جدا اثارة الغوغاء بالخطب الحماسية ذات المواقف الدرامية(١) • ولكى يتجنبوا مثل هذا الخطأ قام الأثينيون بانشاء مجلس آخر يناقش الأمور قبل عرضها على الجمعية العامة وهو مجلس الشورى Boule ولكن القوة الفعلية ظلت متمركزة فى المجلس الشعبى لكثرة عدد أعضائه اذ اعتبر هو «الشعب» يقرر مصير «الشعب» ، وسيكلوجية التجمهر أمر جدير بالدراسة لأن فى التجمهر منطلق للعواطف المجنونة التى تفقد الصواب(٢) ، ومن ثم فقد دفع ذلك الى ظهور الديماجوجية فى أثينا ، ودفعت أثينا ثمن الجنون الذى سببته فى الجماهير وفى قراراتها العمياء • وخلاصة القول ان الهستيريا القومية تكمن فى التجمهر ، والتجمهر يؤدى الى العمى

---

(١) Cf. Barker, op. cit., pp. 294-300 and pp. 333-337.

(٢) القى ترمون مسئولية الحرب على النظام الجماهيرى الاثينى انظر مرجعه السابق ص ١٥٩ •

والضلال ، وخير مثال على هيستيريا التجمهر يوجد فى المجلس العام الأثيني وفي القرارات العمياء التى اتخذها ، ولهذا فان أفلاطون معذور عندما يسمى ديمقراطية الاثينيين فوضى anarchia •

ولقد أعجب الكثير من الكتاب بوطنية الاغريقى لدولته ولكن مثل هذا الاتجاه يجب أن يتجرد من مميزاته عندما تنقلب الوطنية الى عدوان وحرب عدوانية ، والا لما أدان العالم الحديث الفاشية والنازية والصهيونية ، وأقام من أجل ذلك محاكمات نورمبرج لمحاكمة مجرمى الحرب من النازيين ، وكما ندين الوطنية العدوانية الاغريقية يجب أن ندين الوطنية العدوانية الرومانية لأنها كانت مصدر الكثير من الحروب ضد شعوب مسالمة، وفى الحقيقة فان هذه القومية العدوانية هى المسئولة عن حالة الفوضى السياسية بين بلاد اليونان ، اذن فأسباب الحروب العدوانية هى « الفوضى السياسية أولا ثم الاحساس بالقومية والوطنية العنصرية ثانيا ، وكما لاحظنا أن لكل مرض علاجا وأن التطورات قدمت حلولا كثيرة لمشكلة الفوضى السياسية فالفلسفة اليونانية ابان القرن الرابع قبل الميلاد ـ ان لم

تكن قبل ذلك ـ دعت الى الشمول والارتفاع عن الوطنيــة الضيقة المحدودة وذلك عندما دعت الى الوحدة الهللينيــة لكل البــلاد اليــونانية كخطوة أولى ، وكان الخطيب ايسوقراط هو الداعى الأول لهـذه السياسة (ويقال ان ايسوقراط استقى فكرته من فيلسوف سوفسطائى اســمه جورجياس عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد) ، ولكن الفكرة أقدم من ذلك لأننا نجد بذورها ممتدة الى أعمـاق الفكر اليونانى مثل التجمعات والأحلاف الدينية والمباريات الأولمبية التى وجدت بين الاغريق منذ وقت مبكر خاصة أن بلاد اليونان تمتعت بعديد من المراكز الدينية ، وعلى أى حال فبالرغم من وجود العنصرية ما بين ما هو هللينى وغير هللينى فقد قضت هذه الدعوة على القومية الاقليمية الشعبية بين دويلات اليــونان وقضت على العـداء التقليدى الضيق الذى كنا نسمع عنه وكان بداية للمناداة بحركة أشـــمل وأوسع من الدائرة الهللينية، فمثلا نجد ايسوقراط يقول : «ان لقب يونانى لم يعد دليل عنصر بل رمز ثقافة» وخير مثال على ذلك فى التــاريخ اليونانى نجـده فى حركات التأغرق من جانب بعض الشعوب الغير هللينية الجنس مثل

أهل ليكيا والمقدونيين ، وأخذت الثقافة تحل محل الجنس في مفهوم القومية الهللينية وبالرغم من هذا التقدم الكبير في توسيع دائرة الفكر الانساني الا أن النزعة الهللينية العنصرية سرعان ما كانت تتحول الى وطنية عمياء وبخاصة عندما تتصادم مع شعوب أجنبية كالفرس وغيرهم من الشعوب الغير يونانية ممن سماهم الاغريق «البرابرة» .

لم تكن الفلسفة وحدها هي المنبع الذى نادى بالتعالى عن العنصرية والتعصب بل أسهمت الأديان بدورها فى ذلك ، عندما بدأ الاتجاه نحو الايمان بالتوحيد ونبذ الآلهة المتعددة وقد أسهمت البشرية كلها فى ذلك ، وبدأت دعوات تقول ان هناك رباً واحدا لكل الناس مهما اختلفت أجناسهم ففى نشيد آمون المصرى الذى كتب فى عهد تحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٤٧ ق.م) نجد اتجاها نحو « عالمية الآلهة » وفى القرن الرابع عشر قبل الميلاد نجد أحد الملوك المصريين الفلاسفة اخناتون يخرج بحركة تبشيرية وحدانية عالمية تقول ان آتون (قرص الشمس) يسطع على مصر (الحاكمة) كما يسطع على سوريا وبلاد النوبة المحكومة ، وبالرغم من أن حركته ماتت بعد موته

الا أن فكرة التوحيد بعثت من جديد على أيدى أنبياء بنى اسرائيل ثم المسيحية ثم الاسلام ، بل فى بعض تعاليم الفرس الوثنية من نادت بأن هناك الها واحدا لكل الناس وأن الناس كلهم متساوون فى الحقوق لا فضل لأحد على أحد وبذلك ظهرت الدعوة بأن البشر أخوة .

وعلى أى حال فان الأمر بالنسبة للاغريق كان يكمن فى تطور الفلسفة اليونانية ، فمنذ نهاية القرن الخامس قبل الميلاد أو بعد ذلك بقليل بدأت دعوة السوفسطائيين الفلسفية السياسية ، وكان السوفسطائيون فلاسفة متجولين يبشرون بمبادئهم أينما ذهبوا ، وكانوا يمثلون التعليم الأكاديمى بل هم أقرب الى أساتذة جامعة شعبية متنقلة ، وكان جوهر فلسفتهم يكمن فى النقاش والحوار والقدرة على الجدل والمراوغة فى النقاش فكانوا يستطيعون أن يهاجموا الشيء والدفاع عنه بنفس القوة ، وقد يؤخذ عليهم ذلك عيبا اذ أنهم كانوا يبذلون طاقة كبرى فى التلاعب الفكرى والحوار الجدلى ، ولكنهم بالرغم من ذلك علموا الاغريق البرود فى الفكر والتأنى فى استطلاع السبب والمسببات وتجنب الهيستيريا الحمقاء قبل اتخاذ أى قرار ، كما نادوا بأن البشر

متساوون فى الحقوق وأشهرهم كان انتيفون وهيراكليتوس وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة وقد اعترف الأخير بحقوق الدولة ولكنه آمن « بأن الرجل العاقل هو الذى ينفتح أمامه العالم بأسره وأن البلاد التى تنبعث منها الروح الطيبة هى بمثابة العالم بأسره » .

ومهما يقال عن فضل الفلاسفة السوفسطائيين والأيونيين فى القرنين السادس والخامس ق.م فان الدعاة الأول لفكرة العالمية كان مبعثها أصحاب المدرسة الرواقية ، اننا لا ننكر اسهام أفلاطون وأرسطو ، ولكن سبق أن استعرضنا كيف أن هذين الفيلسوفين تعصبا للمدينة الدولة فتأثرت آراؤهما بذلك . وبعد موت سقراط عام ٣٩٩ق.م بزغت شمس المدرسة الرواقية التى أنشأ زينون القبرصى تواتها فى أثنيا ما بين ٣٣٥ ـ ٢٦٣ ق.م ولما كانت قبرص سوريا أو فينيقيا وأنه كان يتحدث بلغة سامية ، وعلى مستعمرة فينيقية وسورية فمن المحتمل أن زينون(١) هذا أى حال فقد نادى الرواقيون بالعالمية وربما حاول الاسكندر تطبيق هذه الفكرة سياسيا فى دعوته لتوحيد

---

(١) انظر عثمان أمين ، المرجع السابق ص ٤٦ ، وما بعدها .

العالم ، وان مثل هذه الدعوة الفلسفية قللت من ضغط العنصرية القومية ولم تقض عليها لأن القضاء عليها لم يتحقق الا على أيدى الرومان وبالقوة ، بل ان الفلسفة الرواقية انتشرت فى روما نفسها وأصبحت تمثل وجهة نظر الطبقة المثقفة وأصبح تدريسها جزءا من الاعداد للحكم وذلك أثناء القرن الثانى قبل الميلاد ، كما أشاد بها الكثير من زعماء الكتابة والسياسة عند الرومان مثل شيشرون ، بل يرى بعضهم أن فكرة الواجب ازاء الدولة عند الرومان نبعت أساسا من تعاليم المدرسة الرواقية ، ففكرة العالمية عند الرواقيين هى ترجمة لفكرة السلام الرومانى(١) ، فقد كتب عن السلام الرومانى كتاب من مختلف الجنسيات ـ كتب عنه سينيكا الأسبانى وبلينى الأصغر الايطالى وأرشميدس اليونانى ، تماما كما كتب عن عالمية الوجود الكثير من الفقهاء الرومان من مختلف الجنسيات مثل سالفيوس جوليانوس التونسى وبابيان الافريقى وأولبيان السورى ، ومما لا شك فيه أن المسيحية(٢) قد أكملت

---

(١) نفس المرجع ص ٢١٤ ـ ٢١٦ .

(٢) نفس المرجع ٢٧٣ ـ ٢٧٩ .

دعوة الرواقيين كما أكمل الاسلام دعوة المسيحية وهـذا أمر جدير بالمعالجة فى مكان آخر •

ثالثا ـ تخلخل النظام الاجتماعى :

عالجنا فيما سبق الفوضى السياسية التى سادت المدن اليونانية نتيجة للتعصب الوطنى، مما أدى الى الصدام المسلح بينها ، ولا شك أن الطبقات الحاكمة فى دويلات المدن اليونانية كانت العائق الأول لقيام وحدة سياسية وتعاون اقتصادى ، ومن ثم فان مسئوليتها عن الفوضى السياسية مسئولية كبيرة ولهذا علينا أن نلقى نظرة شاملة وعامة على النظام السياسى والاقتصادى فى المدن اليونانية •

يعتبر الشعراء والكتاب والفلاسفة اليونانيون مصدرنا الأول للكثير من المعلومات عن هذا الجزء من البحث ، اننا نجد شعراء اليونان فى القرن السادس والخامس قبل الميلاد يقبلون راضين النظام الاجتماعى السائد وقتئذ وهو النظام الاقطاعى الاستغلالى ، ويقبلون أيضا وجود نظام العبيد كحقيقة مسلمة لا تقبل النقد أو المعارضة ، كما أن النظام الاجتماعى كان يقوم على أساس الوراثة الاقطاعية كما لقى

هذا النظام قبـــولا من جانب بعض الفلاسـفة ، فأفلاطون وأرسطو لا يدينان نظام الرق بل يقبلانه ويعترفان به (١)، والحق يقال كان الرواقيون أول من بدءوا الجدل حـــول وجود العدل الاجتماعي أو عدم وجوده في نظام الرق(٢) وبالرغم من أن نظام الحكم قد تغير في بلاد اليونان بعـد طرد الفرس وتحول من حكم الفـــرد للشعب الى حكم الشعب للشعب أو حكم الجماعة للجماعة ـ وهو ما تعنيـه كلمة ديمقـــراطية ـ الا أن النظام لم يتغير في جـــوهره عما كان عليه من قبل وبخاصة في نظرته الى نظام الرق ، فقد حرمت التشريعات الديمقراطيـة الجـديدة العبيد من جنى أى من الثمار السياسية أو الاجتماعية التى اكتسبها المواطن الاغريقى ، حتى النســـاء اليونانيات أنفسـهن لم يعتبرن «أحرارا» ولم يتمتعن بحقوق المواطنة ، أضـف الى ذلك أن عددا كبيرا من السكان اعتبرهم النظـام الجديد غرباء عنه مثل طبقة الصناع .

(١) عن الرق ورأى الفلاسفة الاغريق انظر .

Robert Schlaifer : Greek Theories of Slavery from Homer to Aristotle, Harvard Studies in Classical Philology 47, 1936, pp. 165-204, cf Barker, op. cit, pp. 139, 310, 374.

(٢) عثمان أمين المرجع السابق ص ٣٥٤ .

اذن فالديمقراطية الأثينية كانت ديمقراطية مغلقة على الذين يسمون أنفسهم بالأحرار فقط (حتى دون نسائهم) وهم الذين اعتبروا مواطنين كاملين Politai وكان عددهم لا يتجاوز نصف عدد السكان ، ومن العجيب أن النظام الاسبرطى الذى ظل مادة للحرب الباردة الأثينية لم يكن يختلف فى جوهره عن النظام الأثينى بل ربما كان أكفأ منه ، فقد تمتع الاسبرطيون بمساواة كاملة فيما بينهم وشاركوا فى عملية الاقتراع الانتخابى وحرم من هذه المميزات طبقة المستعبدين أو أهل البلاد الأصليين ، اذن فلا فرق بين ديمقراطية الأثينيين ونظام الحكم الاسبرطى الجماعى بل يمكن أن نقول اذا كانت الديمقراطية هى منح مميزات لبعض الناس دون غيرهم ، فان النظام الاسبرطى يعتبر أيضا ديمقراطيا ، بل ان هذا الأخير كان أكثر كفاءة من النظام الأثينى ، اذ كانت له شخصيته الادارية والتنظيمية ومن الغريب أن الأثينيين أنفسهم لا ينكرون أنهم استقوا مصادر ديمقراطيتهم من المساواة التامة التى تمتع بها المجتمع الاسبرطى الحاكم وبخاصة فيما يختص بنظام ملكية الأرض مما دفع الأثينيين الى المناداة فى أكثر من موقف باعادة تقسيم الأراضى re-distribution of land

وهـذا فى الحقيقة هو نواة الحركة الديمقراطيـة الحق والتى اكتملت فى عصر بيركليس فى القرن الخامس قبل الميـلاد ، ومن الجدير بالذكـر أن اسـبرطة قدر لها أن تشهد تجربة اشتراكية كبرى فى القرن الثالث قبل الميلاد حيث لعبت الطبقات الحاكمة دورا كبـيرا فى تطبيق هذه التجربة الاشتراكية الفريدة فى نوعها فى التاريخ •

لم يكن النظام الاقتصادى أقل اضـطرابا من النظـام السياسى والاجتماعى خاصـة ان النظام الاقتصادى كان مرتبطا بالنظام السياسى في المـدن اليـونانية ، فمثـلا فى اسبرطة عانى المواطنون أعباء اقتصادية ضخمة لأن نظامهم السياسى ـ حيث أقلية عنصرية تحكم أكثرية ـ أملى عليهم التضحيات فى سبيل السيطرة على الموقف ، وعلى أى حال أدرك المفكرون الاغريق أنفسهم أن المتاعب الاقتصـادية سببها المشاكل السياسية ، ولم يكن المـؤرخ ثوكوديديس أول من لاحـظ ذلك بل لاحظه أيضا معـاصره الخطيب انتيفون الذى قال ان التفاوت فى الامتيازات الطبقية هو سبب الفوضى السياسية وهى التى تولد عنها صراع الطبقات الذى اجتاح المدن اليونانية فى القـرن الرابع ق•م ، لقد

ربط أرسطو بين الاقتصاد القومي ورسوخ النظام السياسي وقد قال فيلسوف من جنوب غرب آسيا اسمه هيراكليديس قولا مأثورا وهو : « من السهل علينا أن نكون خيرين مادمنا نجد ما نأكل » ، كما لاحظ ايسوقراط أن المعدمين معذورون في استهتارهم تجاه الدولة ، وقد ازدادت الأحوال الاقتصادية في بلاد اليونان سوءا منذ القرن الرابع قبل الميلاد حيث انتشر الفقر والبطالة واللامبالاة بينما فشلت الحكومات أن تجد علاجا لذلك حتى بتشجيع الهجرة ، كما فعلت حكومات القرن الثامن والسابع قبل الميلاد ، وقد يتساءل بعضم ما شأن التفاوت الطبقي وشأن الحروب في بلاد اليونان ؟ ولكني أجيب على ذلك بأن التفاوت الشاسع بين الطبقات الاجتماعية في بلاد اليونان كثيرا ما زج بالبلاد في حروب كثيرة وان الاقتصاد كان العامل الديناميكي (ولا يزال) في اعلان واستمرار الحروب ، اذ أدى ذلك الى :

١ ـ تدخل بعض المدن اليونانية في حرب لنصرة طبقة اجتماعية معينة في مدينة أخرى •

٢ ـ وجود طبقة تحث دائما على اشعال الحروب من

أجل الحصول على غنائم وبخاصة العبيد الذين كانوا يقومون بدور الآلة لأصحاب ورجال الأعمال وكبار الزارعين •

٣ ـ اندلاع أكثر من حرب نتيجة لثورات الطبقات المغلوبة على أمرها مثل العبيد ولنناقش كلا من هذه النقاط على حدة :

ان تدخل بعض المدن اليونانية فى حروب من أجل انقاذ طبقة حاكمة فى مدينة أخرى يتصل بصراع الطبقات فى بلاد اليونان ، فقد شاع السخط السياسى بعد تدهور الحواجز التى كانت تفصل بين المواطنين ، وقد عاصر ذلك تطورات فى الاقتصاد مثل اختراع النقود الذى يعتبر تجديدا ثوريا وبداية للصراع الاجتماعى بين الأقليات الحاكمة (الاوليجاركين) والأغلبية التى تطالب بالمساواة (الديموقراطيين) وكان معظمهم مواطنون معدمين ، وتعرف الحروب الاجتماعية فى اللغة اليونانية باسم Stasis وكان أول من حدد نوعية هذه الحروب المؤرخ ثوكيديديس عند وصف الحرب الأهلية الاجتماعية التى حدثت فى

جزيرة كوركورا عام ٤٢٧ ق.م بعد أن ثار المضطهدون ضد الطبقات الحاكمة المضطهدة وسالت الدماء غزيرة تملأ الطرقات ، وسرعان ما انتشرت الثورة الاجتماعية فى بقية العالم اليونانى اذ انقسم العالم الاغريقى الى طبقتين اجتماعيتين متقاتلتين وأصبح ولاء المواطن لفئته الاجتماعية يغلب على ولائه لدويلة مدينته ، ويسجل لنا أفلاطون كيف أن المدن اليونانية انقسمت الى جبهتين كل منهما تتربص بالأخرى كما لو كانا جيشين متحفزين للقتال ، اذن فالحرب الأهلية الاجتماعية سببها انتشار الفوضى السياسية فى العالم الهللينى بل أدت أحيانا الى حروب خارجية Polema لأن الطبقات الاجتماعية المتقاتلة ساعدت بعضها البعض عبر الحدود على المستوى الدولى ، ولقد سبق أن مر العالم الاغريقى بحركة مشابهة عندما راحت الطبقات الجديدة تسقط الارستقراطيين الحكام وتفسح المجال « للطغاة » خلال القرن السابع والسادس قبل الميلاد كزعماء للطبقات الشعبية ، ونتيجة لذلك فان الارستقراطيين كانوا يرسلون مساعدات الى المدن اليونانية التى يطلب حكامها الارستقراطيون النجدة ، وكانت اسبرطة

دائما تقدم مثـل هـــذه المساعدات لأن أثينــا كانت المدينة المناهضة لحكم الارستقراطيين ، وكم تدخـــل الاسبرطيون لاسقاط الطغاة كما تدخلوا الى حـــد كبير فى جــزيرة ساموس ، وكما ساعدوا فى اعادة الأسرة الأرســتقراطية الأثينية مثـــل أسرة الكمايون الى الحـكم ، ولذلك أدان أفلاطون نظــام الطغاة لتدخله فى شئون المـــدن اليونانية الأخرى ، ثم اختفى نظام الطغاة من بلاد اليــونان الا أنه ظلّ موجودا فى جزيرة صقلية ، حيث التفاوت الكبير بين الأثرياء والمعدمين (كما لاحظ أفلاطون) ، وكان الصراع الطبقى فى جزيرة صقلية أشد عنفا مما كان عليه فى بلاد اليونان لأن الطبقات كانت تستدعى دائما قوى خارجية ضد بعضها البعض ، فقد استدعت الأسرة الأرستقراطية فى مدينة سيراكيوزه والتى كانت تعرف باسم أسرة ال Camoroi الطاغية جيلون من مدينة جيلا ليخمد ثورات المعدمين عام ٤٨٥ ق٠م وفى بعض الأحيان نجد الأحزاب الاجتماعيـــة المتقاتلة على استعداد لطلب العون حتى من قوى أجنبية غير اغريقية مثل قرطاجة ، وقد كان طلب المساعدات العسكرية من خارج المدن اليونانية ضد طبقات اجتماعية معينـة أمرا

شائعا فى بلاد اليـــونان بالرغم من أن كلا من الطـــرفين المتقاتلين كان يدعى تمسكه بالمبادىء التقليدية للمدينـــة اليونانية وهى الحـــرية والاستقلال والاكتفاء الذاتى ، كما وضح ثوكوديديس ذلك فى معالجته للحروب البيلوبونيزية وفى كل مكان بذل القادة الشعبيون مجهودات لكى يقنعـــوا الأثينيين والاسبرطيين على الجلوس معا لعقـــد السلام .

لقد شبه أفلاطـــون النظام الأرستقراطى الأوليجاركى بالجسد المريض الذى تتصارع أعضاؤه مع نفسها ، وأن المدينة سرعان ما تصبح مريضة تبعـــا لذلك فهى سرعان ما تتورط فى حروب بسبب طلب المتقاتلين مساعدات من خارج الحدود ، وقد تزايد احساس تفضيل الولاء للنظام الاجتماعى على الولاء للدولة فى العصر الرومانى ، حيث كانت الأطراف المتقاتلة تستدعى روما لمساعدتها ، والحق يقال ان هذه الظاهرة لم تكن فى بلاد اليـــونان فقط بل نجدها حتى فى قرطاجة أيضا فعندما ضاق الأوليجاركيون ذرعا بآراء هانيبال فضلوا دعوة الغزاة الرومان عام ١٩٦ ق.م ضد زعيم البلاد نفسه .

يقول ايرب « ان التاريخ اليونانى غنى بنماذج كثيرة

للبطولات الرائعة ولكنه في الوقت نفسه ملىء بمواقف صارخة للخيانة . وأن من بين الخونة من هم أعظم الساسة الاغريق » ـ اذن فالخيانة مشكلة أخرى تلى مشكلة الولاء للنظام الاجتماعى ووضعه فوق الدولة ، ومن بين الأمثلة على الخيانة ثيموستوكليس بطل سلاميس ، نجده يهرب ويقبل أن يجند نفسه للعمل مع الفرس فى نهاية أيامه ، وكذلك الزعيم الكبياديس الذى هرب من أثينا الى اسبرطة ووضع أسرارا خطيرة بين أيدى الاسبرطيين سهلت لهم الاستيلاء على أثينا ، ونجد أمثلة متعددة بين الاسبرطيين أنفسهم مثل خيانة الملك كليومينيس وتآمره ضد الحلف البيلوبونيزى الذى تعتمد عليه بلاده ، وكذلك خيانة الملك باوسانياس بطل معركة بلاتيا فى الحروب الفارسية اليونانية حيث نجده يتهم بالتواطؤ مع الفرس ضد الاغريق ، ثم التآمر مع الهيلوت ضد السادة الاسبرطيين ، وهناك أمثلة عديدة على خيانات كانت السبب فى اندلاع العداء بين بعض المدن المختلفة ، وبصرف النظر عن الحماسة العمياء للاغريقى تجاه فكرة سياسية أو عنصرية معينة التى قد تدعوه للخيانة ، فقد كان « الفقر » هو العامل الأساسى

للخيانة • وكانت « الرشوة » لا تقاوم من جانب الاغريقى المعدم ، وقد ذكر هـيرودوت أن الاسـبرطى لا يرفض الرشوة أبدا كما استاء بوليبيوس فى القرن الثانى قبل الميلاد من نهم الموظفين الاغريق ، وعلى أية حال فان التفاوت بين الفئات الاجتماعية المختلفة على مستوى العالم الاغريقى هو العمل الأساسى فى اشعال الحروب •

وثمة عامل آخر له تأثيره فى المتاعب الداخلية وبخاصة فيما يختص بالاضطرابات الاجتماعية وهو « نظام الرق » ومعناه وجـود قطاع من الناس محرومين من كل الحقوق حتى «الانسانية» ، وقد ساد هذا النظام فى معظم دول العالم القديم وبخاصة فى آشـور وبابل ، ولكن بالنسـبة لبلاد اليونان فقد زاد عدد العبيد منـذ أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس حيث كانت جزيرة خيوس بالقـرب من شاطىء آسيا الصغرى تقوم بدور السوق الدولى لتجارة العبيد ، وكان العبيد مصدرا للطاقة البشرية ويقدر الأستاذ «جوم» أن من بين عدد سكان أثينا فى عام ٤٣٠ ق•م وهو حوالى ١٥٥ر٠٠٠ نسمة ما يقرب من سبعين ألف عبد ومن عدد سكان أتيكا كلها الذى كان حوالى ٣١٥ر٠٠٠ نسمة

كان من بينها ١١٥٫٠٠٠ عبد ، وقد زاد عدد العبيد وأهميتهم فى الاقتصاد ابان القرنين الثانى والأول قبل الميلاد نتيجة لحروب روما فى الشرق ، ويقال ان ما يقرب من ٣٠٪ من سكان روما أو ثلثها كانوا من العبيد ، وفى هذا الوقت كانت جزيرة ديلوس القريبة من آسيا الصغرى هى سوقهم الدولية ، كما كانت مدينة ليفربول الانجليزية فى العصور الحديثة ، وكلما زاد عدد العبيد ساءت أحوالهم الاجتماعية لدرجة لا توصف ، وقد بلغ الظلم الاجتماعى ضد العبيد أقصاه فى مناجم لاوريون مصدر الفضة الأول لمدينة أثينا ، وكان الحال أشد سوءا فى روما لدرجة أن الرومانى رأى أنه من الأوفر اقتصاديا أن يشترى العبد ويستهلكه حتى الموت ، ثم يشترى آخر على أن يعتنى بالعبد ليعيش طويلا وزيادة أعداد العبيد كانت نتيجة للحروب ، وأصبحت الحرب تدفع بأيد عاملة رخيصة ومن أجل ذلك فقد كان هناك من يحرص على زج البلاد فى حروب كى يستفيد من العبيد ، كما فعل الاسبرطيون ضد الهيلوت فى الحروب المسينية (١) اذن الحرب لم تكن

---

(١) كذلك يستفيد الصهاينة اليوم من رخص الأيدى العاملة =

مشروعا سياسيا بل كانت ذات هدف اقتصـــادي وعلى ذلك فبدلا من التخلص من الشعوب المهزومة ارتأى الاغريقى أو الرومانى أنه من الأفيد أن يبيع السكان كعبيد لتغطية نفقات الحرب •

لقد كانت آسيا الصغرى هى مصدر العبيد الأكبر لروما، وقد أغرق السوق الرومانى بجموع من العبيـــد نتيجـة للحرب هناك ، كما أن جامعى الضرائب الرومان استرقوا الفقراء من الناس لعجزهم عن دفع المتأخرات • كما تدفقت حشود العبيد على روما بعد معارك قيصر الدامية ضد الغاليين والتى سجلها فى كتابه « عن الحـــرب الغالية(١) » ، وفى كلتا الحالتين استفادت طبقات الرأسمالية الرومانية من سبايا الحرب ، ومن الواضح أن مجلس الشيوخ الرومانى تردد كثيرا فى اتخاذ عمل حاسم ضد قراصنة البحر الأبيـض المتوسط لأنهم كانوا خلية حية فى نقل العبيد والاتجار فيهم وكانت روما هى المستهلك الأول لهم ولم تتخذ روما اجراء

= الفلسطينية داخل الأرض المحتلة ، ووفرتها فى تنفيذ مشروعاتهم واستغلال البشر لا يقل اهمية عن استغلال مصادر الطاقة والارض •

(١) De Bello Gallico.

حاسما ضد القراصنة الا عندما زادت سطوة هؤلاء القراصنة وكادت أن تهدد مصالح الامبراطورية الرومانية نفسها • عندئذ كلف السناتو بومبى العظيم بتطهير البحر الأبيض من خطر القراصنة •

ولم يكن السكان فى المستعمرات الرومانية أسعد حالا بل تدهورت حالتهم الاقتصادية منذ القرن الأول قبل الميلاد ، حتى مصر التى لم تكن بعد ولاية رومانية عندما نقش حجر رشيد والذى يصور حالة اقتصادية بشعة واضطرابات حدثت بدافع الفقر والعوز وكان هذا بداية لمتاعب جديدة للحكام •

كانت هناك حركات اصلاحية ولكنها كانت حركات قليلة مثل الاصلاح الاشتراكى المتطرف الذى خبرته اسبرطة فى عصرى الملك اجيس الرابع (٢٤٤-٢٤١ ق•م) وكليومينيس الثالث (٢٣٥ - ٢١٩ ق•م) وبعض هذه الاصلاحات الاجتماعية لم يقدر لها النجاح كحركة الأخوين جراكوس (١٣٣ ، ١٢٢ ق•م) وكانت هذه التجربة الديمقراطية الوحيدة التى شهدتها روما

والتى ـ بالرغم من فشلها ـ شدت اليها قلوب المظلومين من كل ناحية ، وسرعان ما أدى سوء الأحوال الاقتصادية ـ سواء عند الشعوب المقهورة أو العبيد ـ الى تفجر حركات تمرد واسعة ومن ثم اضطرت روما لخوض حروب دامية للقضاء على هذه الثورات ، لقد استخدمت روما القوة داخل ايطاليا نفسها ضد الايطاليين الساخطين والعبيد المتمردين ، وذلك فى أعقاب الحرب البونية الثانية. وبعد تجربة تيبريوس جراكوس الاشتراكية الفاشلة اندلعت ثورات وحروب ضد روما وبخاصة فى آسيا الصغرى وجزيرة صقلية ـ التى اشتهرت بأنها معقل العبيد ومركز ثوراتهم ـ شهدت فى القرن الثانى قبل الميلاد ثورة تحت زعامة عبدين هما يونوس وسالانيوس ، وبعد ضم مملكة برجامون الى روما حرض أحد أفراد أسرة اتاللوس ـ من زواج غير شرعى ـ المواطنين والعبيد على أن يهبوا فى مواجهة محاولة الضم الرومانى لبلادهم ، وكانت دعوته موجهة للمعدمين والوطنيين والعبيد على السواء وهذا الزعيم اسمه ارستكونيكوس ، كما شهدت صقلية حركة تمرد أخرى ما بين ١٠٣ ، ٩٩ ق.م عرفت بضراوتها وبربريتها

عندما قاد سبارتاكوس جحافل العبيد وسيطر على منــاطق شاسعة فى جنوب ايطاليا ، ولكن الرومان أخمدوا هــذه الثورة ببربرية لم نسمع عنها فى التاريخ من قبل ، وقــد ادعى بومبى العظيم شرف القضاء على هـــذه الثورة ومن العجيب أننا نجد ابن بومبى وهو سكستوس يجند جيشه من العبيد ـ ضحايا والده ـ بعد ثلاثين عاما ليحاول السيطرة على الحكم فى روما •

وأخيرا وليس آخرا يجب ألا ننسى الاشارة الى الحرب الاجتماعية التى خاضتها الشــعوب الايطالية ما بين ٩٠ ـ ٨٩ ق•م من أجل الحصول على حقوقها السياسية •

وبعد ثلاثة عشر عاما من الصراع والكفاح شاء القدر لأغسطس أن ينتصر ، وكان تأسيسه للحكم الامبراطــورى نهاية وصدمة للحـــركات الثورية التحـررية بالرغم من الاصلاحات التى أدخلها هـــذا الامبراطور للتخفيف من التناقض بين الطبقات ، اذ أنهى حروب العبيـــد بالرغم من أن الامبراطورية شاهدت حركة بيع جماعية لليهود كعبيد فى عصر تيتوس وهدريانوس ، وعلى أى حال فقد قل عدد

العبيد فى العالم الرومانى بعد تأسيس الامبراطورية • كما شهدت هذه الفترة اتجاها نحو معـــاملة انسانيــة كما زاد العتق للعبيد فكانوا أحسن حالا من رعاع المدن ومعدميها بل من العمال الزارعين Coloni الرومان أنفسهم •

رابعا ـ أزمة القيادة وأثرها على الحرب والسلام :

سبق أن أشرنا الى أن التفاوت بين الطبقات فى المجتمع اليونانى والرومانى كان ـ وان كان ذلك غير مباشر ـ سببا من أســـباب اندلاع الحروب ولعلنا نتصــــور مدى حدة الصراع الطبقى فى العالم القديم ، لو أدركنا خطورة هذا التفاوت فى المجتمعات الحديثة برغم تراكم النظم الانسانية والاشتراكية التى جاءت نتاجا لأعمال الفلاسفة والمفكرين وما تلى ذلك من ثورات اجتماعية عبر القرون •

ومما لا شك فيه أن الحكام كانوا أقرب الناس تأثرا بمشاكل التفاوت الطبقى فحتى العصر الحديث ظل النسب والثراء من الاعتبارات الهامة التى على أساسها كان يختار القائد أو الحاكم ، ومن ثم فان هذين العاملين ضيقا دائرة المرشحين للزعامة والحكم وجعلاهما وقفا على نخبة معينة

دون اعتبار لعامل الكفاءة أو الاستعداد العقلى والنفسى لهذه الوظيفة ، وكثيرا ما أدى ضعف الحاكم الى فوضى سياسية وبالتالى اندلاع الحروب ، أضف الى ذلك سطوة الارستقراطيين فى العالم القديم وحبهم للقتال ونزعتهم الطبيعية نحو العدوان ، فالحرب عندهم رياضة كالصيد فى وقت السلام(١) ، ولم يكن ذلك وقفا على الحال فى بلاد اليونان وحدها ، لأننا نجد فى مصر مثلا فى القرون الأخيرة قبل أن يفقد هذا البلد استقلاله ـ نجد طبقة ارستقراطية حاكمة ميالة الى القتال والاقتتال ، وفى بلاد اليونان مثلا نحس بسطوة هذه الطبقة وشدة حبها للحروب حتى من بين أبيات الالياذة والأوديسا ، وقد سبق أن تناولنا مشكلة الحكم فى اسبرطة التى كانت الحرب فيها أمرا يوميا ليس بغريب أو مستغرب كما أشرنا الى ملاحظة العلامة تزمون Zimmern عن اهتمام الأثينيين بالتمرين والاستعداد للحرب وكأنهم يستعدون لمعسكر يقضون فيه أيام صيف سعيدة .

أما بالنسبة للرومان فقد كانت عظمة الوطن Gloria

(١) Aristotle, Politics, 1256.

هى الشغل الشاغل لأحلام القادة والعظماء وكلمة العظمة أو المجد Gloria مرتبطة كل الارتباط بالمجد العسكرى والانتصار فى ميادين المعارك ، لقد كانت عظمة الوطن هى الدافع الأول لحروب شنتها روما على شعوب مسالمة وغير مسالمة ، « فالعظمة » هى التى دفعت يوليوس قيصر الى أن يسير غازيا فى سبيلها وأن يسفك دماء غزيرة بطرق مجردة من الانسانية كتب مفاخرا بها فى احدى مؤلفاته العسكرية عن حـرب الغـال De Bello Gallico ولم يكن اكتافيانوس أقل وفاء لعظمة روما من يوليوس قيصر .
ولكنه كان أقرب منه ميلا الى السلام ، ولذا نراه يلبس انتصاراته السياسية والدبلوماسية الثوب العسكرى ، ثم يطلق أبواق دعايته سواء عن طريق شعراء البلاط أو عن طريق اقامة النصب التذكارية التى تردد أعمـاله العظمى وفتوحاته الكبرى من أجل عظمة روما ، وقـد نجد ذلك واضحا فيما يختص بمشكلة البارثيين ، اذ كان انتصاره عليهم سياسيا ولم يكن عسكريا ، وقد يكون حب القتـال فى الدولة القديمة ناتجا من أن مهام الدولة كانت وقفا على الرجال وحدهم ، فلا نكاد نعرف نساء كثيرات (اللهم الا

بعض الملكات) وصلن الى مراكز قيادية فى الدول القديمة •
فالنساء أقرب الى المسالمة وتأييدا للسلام من الرجال ، أو
على الأقل كان ذلك اعتقـاد الكاتب الكوميدى الساخر
ارستوفانيس عندما كتب مسرحيتـه الهزليـة لوستراتا
Lysistrata فى أحلك أيام أثينـا أثناء الحـروب
البيلوبونيزية الكبرى ، لقد تخيل الشـاعر الساخر ـ وأثينا
محاصرة ومغلقة على نفسها كقلعة يحيط بها الأعداء ـ انقلابا
تقوم به النساء فى محاولة لوقف القتال الدائر بين الاغريق
ومن أجل الحفاظ على الرجال الذين تناقص عددهم وندر
وجودهم •

وعلى أى حال فقد لعبت المرأة الرومانية دورا أكثر
فاعلية فى السياسة والحكم من المرأة الأثينية • وليس هذا
موضوعنا الأساسى فى هذا البحث •

ومن الغـريب أن الأغـريق والرومان لم يصرحوا
علانية بأن مراكز القيادة يجب أن تكون وقفا على طبقات
معينة بل بالعكس كانوا يرددون عكس ذلك • فالاثينيون
أرادوا أساساً بتفسـيرهم الديمقـراطى فتح المجـال أمام

القدرات والكفاءات دون النظر الى الوضع الاجتماعى بين المتمتعين بحقوق مواطنة المدينة ، ولكن بالرغم من هذا فان الثراء والنسب ظلا عاملين لهما تأثيرهما فى اختيار القادة حتى فى الأيام التى كانت فيها ديمقراطيتهم فى أوج عظمتها • أما بخصوص الوظائف الغير قيادية فقد سلك الاغريق مسلكا بعيدا عن تأثير الثراء أو النسب ، اذ كانوا يختارون الأشخاص من بين المرشحين عن طريق «القرعة» لقد كان ذلك تقدما كبيرا وتحطيما لقانون « الوراثة » القديم ، ولكن الطريق كان لا يزال طويلاً أمام اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب ، ووضع عامل القدرة والاستعداد الطبيعى موضع التقدير عند الاختيار • وجدير بالذكر أننا لا نستطيع نقد الديمقراطية الأثينية فى هذا المجال، لأنفكرةالمساواة لذاتالمساواة Egalitarianism فكرة عاطفية نظرية لا يمكن تحقيقها وكل ما كتبه ويكتبه واضعو النظريات السياسية عن ذلك ما هو الا رياء للجمهور أو انفعال لحلم عاطفى سياسى ، نجد ذلك واضحا فى اشارات واضعى النظريات السياسية الذين ظهروا قبيل الثورة الفرنسية وابان الثورة الأمريكية ، ولا يزل الرياء

النظرى lip-service محط اهتمام فلاسفة الديمقراطية فى العصر الحديث ، حتى انه قيل ان أكثر ما ارتكبته النظم الشبه ديمقراطية فى العصور الحديثة من أخطاء لم يكن الا وليد محاولة تحقيق فكرة المساواة المطلقة بين الناس. ولكننا يجب أن نفرق بين مبدأ المساواة ومبدأ تكافؤ الفرص فالمواهب الطبيعية موهبة من عند الله وليست خاضعة لنظم وضعية ومن ثم فهى تمييز من جانب الطبيعة لفريق من الناس . وقلما أتاحت عملية « الانتخاب » أو « القرعة » الفرصة لذوى القدرات القيادية لاتخاذ أمكنتهم التى تؤهلهم الطبيعة لهـا ، ان فكرة الديمقراطية لن تتحقق الا اذا استطاع المفكرون وضع نظم تستطيع أن تلقى الأضواء على المواهب الخلاقة وتأخذ بيد العبقريات لتصل الى أماكنها القيادية سلميا ، ان الناس ـ اذا ما خلوا من وجود القدرات الخلاقة ـ أصبحوا متساوين كالموتى فى القبور ، ولم يترك أفلاطون ولا أستاذه سقراط ـ حكيم عصره ـ هذا الموضوع يمر دون ملاحظة ، لقد انتقد أفلاطون الصيغة النظرية للتفسير الأثينى للديمقراطية ووصفها بأنها مخالفة للمنطق لأنها أوجدت مساواة بين من يتساوون ومن

لا يتســـاوون(١) فى قدراتهـــم الخاصة وبالرغـــم من أن أفلاطون وأرسطو شـغلوا أنفســهم فى المقـام الأول بالقضايا التى تدور حول مشــاكل الجنس الهللينى ـ الا أنهم أولوا الكثير لمشكلة القيادة والحكام وما يجب أن يتوفر فيهم من مزايا ومن استعدادات فطرية ، كما ألح سقراط من قبل علىوجوب توفر الاعتدال الفكرى والاتزان الخلقى والعقلى ، ولكن بالرغم من الجدل الفلسفى النظرى الذى ساد بين المفكرين السياسين الاغريق لا نستطيع أن نجزم بأن حكام الولايات اليونانية المختلفة كانوا يختارون على أساس القدرة والكفاءة .

والحق يقال ان المحاولة الأولى لاختيـار الحاكم على أســاس هذه الصــفات لم تجىء الا على أيدى الرومــان وبخاصة الأباطرة الذين حكموا روما ما بين أعوام ٣٠ قبل الميلاد و ١٨٠ ميلادية ، وليس يعنى هذا أننا نعتقد أن الحكم الرومانى كان حكمــا « ديمقراطيــا » يتعـاون فيه الفرد من أجل الجماعة ، بل كان على العكس من ذلك لأن القـانون الرومانى فى جوهره لم يكن ينـادى بالمسـاواة

(١) Cf. Barker, op. cit., p. 296 ff.

والتعـــاون بل كان ينـــادى بأن لـكل ذى حق حقـه Suum cuique ، ولم يكن أغسطس مختلفـــا عن باقى الرومان فى هذا ولكنه استاء من الفســاد وعـدم الكفاءة والضـعف اللذين ســـــادا بين الطبقـات الأوليجاركيـة والأرستقراطية ابان عصر الجمهـورية مما هـدد الأخلاق الرومانية المعروفة بالتقوى pietas وبالتفانى فى سبيل مجـد الأمة Gloria ، لقــــــد كان أغســـطس أكثر الرومان محافظة على تقاليد روما وتراثها الأخلاقى ولكنه أحس بوجوب تغيير جـذرى ، لقد كان أغســطس يبغى السلام فى المقام الأول (Pax) كما كان يبغى الكفـاءة والقدرة الديناميكية فى القيادة التى كانت روما فى حاجة ماسة اليها •

ومن هنا ارتأى أن الكفاءة والقـدرة هما الأسـاس الذى ليس بعـده أســاس فى الاختيـار لشـغل المناصب الكبرى والقيادية ، ولهذا قام بثورة ادارية وقد تبع خلفاؤه نفس الطريق ، اذ هدءوا من روع الأرستقراطية بالمناصب التشريفيـة بينمـا جعلوا المناصب الفعليـة لمن تتوفر فيهم القدرة والكفـاءة • وقد واجه خلفـاء أغسطس مشـاكل

عديدة بسبب اتساع رقعة الامبراطورية اتساعا يصعب السيطرة على أجزائها ، ولكن نظام اختيار القادة دفع بالرجال الأكفاء لمواجهة هذه المشاكل ، وكان الاختيار يقوم على أساس الخبرة والمقدرة وكان الامبراطور هو الذى يختار المسئولين ، يساعده فى ذلك مستشاروه الذين كانوا كنزا ثريا من الخبرات السياسية والعسكرية ، ومما يلاحظ أن الاختيار كان يقوم على أساس الكفاءة فقط دون أى اعتبار للنسب أو الثراء وقد وجد الامبراطور ومستشاروه العديد من الرجال الذين حنكتهم الخبرة والذين وصلوا الى ماكانو عليه عن طريق الكفاح والعمل ، لقد فتحت الحروب الأهلية الطاحنة التى شهدتها روما قبل مجىء أغسطس المجال أمام طبقات جديدة لتظهر فى سماء المجتمع الرومانى ، وباختصار نستطيع أن نقول ان تطبيق نظام الاختيار والخروج على اعتبارات النسب والثراء كان من أهم معالم عصر الامبراطورية الرومانية ، وهو الذى يميزها عن عصر الجمهورية الذى أنهاه أغسطس ، لقد اتسع المجال ـ كما قلنا ـ بسبب « الرجال الجدد » أو الطبقات الجديدة أو الفئة العصامية ، ونود أن نشير الى فئة أخرى اتسع أمامها المجال وهم

العبيد المعتقين Libertini وتعتبر ظـــاهرة عتـــق العبيـــد أهم ملامح العصر الرومانى ، اذ لم نكن نسمع كثيرا عن هذه الظاهرة فى العصر الهللينستى ، لقد وضع الامبراطور أغسطس تشريعا لعتق العبيـد ، ولم يكن قصد أغسطس انهاء نظام العبيد أو الحد منه بل كان هدفه ضمان مصدر للرجال الأحرار الأكفاء لسد حاجة الامبراطورية الشاسعة، كانت غالبية العبيد تجيء من آسـيا الصـغرى التى عرفت قديما باسم « منجم العبيد » ، ولم يكن المجتمع الرومانى عنصريا بالدرجـة التى كان عليهـا المجتمع الاغريقى لأنه سمح لبعض البارزين والنابغين من العبيـد بالوصول الى مراكز هامة بعد عتقهم . ولذا كانت السـياسة الرومانيـة أكثر اتزانا وحكمة وأقل تهورا وتخبطا من السياسة فى الدويلات الاغريقية ، وقد ينتقد البعض نظام الاختيار بأنه أمر يتوقف على شخصـية وسـيكلوجية الامبراطور الذى يختار أو يوافق على اختيار المسئولين ، ولكن الذى يعنينا هو كفاءة الذين يختارون ، وعموما نستطيع أن نقول اننـا لا نقطع بسلامة نظام الاختيـار الإمبراطوري ولكنـه يعتبر أسلم الطرق وأحسنها نتائج . فمن بين مجموعة الأباطرة

الذين عينوا بالاختيار لا نكاد نجد سوى عدد قليل منهم ، كانوا غير جديرين بهذا الاختيـار • وكثيرا ما كان ذلك نتيجة لشذوذ عقلي ناتج من أمراض نفسية أصابتهم أثناء فترة حكمهم أو راجع الى عوامل أخرى مصدرها البيئة والأسرة وبخاصة تأثير الأمومة في التربية الأولى ، وكثيرا ما كانت هذه الأمراض النفسية دفينة ولكنها ظهرت عندما وجـد الامبراطور نفسه يتحكم في امبراطورية شاسعة وملايين من الأتباع ، فمثلا على طول مائة عام لا نكاد نجد في الأسرة التي بدأها قيصر وأسسها أغسطس سـوى عدد قليل من الأباطرة العـاطفيين أو المتهـورين أو المستهترين أمثـال الامبراطور كاليجولا Galigula ، ونيرون ٣ (Nero وقد يكون الشذوذ فرديا فمثلا كان تيتوس Titus أحب الأباطرة الى قلوب الرومان ، وهو نفسه شقيق للامبراطور دوميتيانوس الذي كان أكثرهم كرها ومقتا في نظرهم • لقد جاء أعظم أباطرة عصر السلام الروماني أمثال تراجان وهادريان وانتونينوس بيـوس وماركوس أوريليوس الى العرش عن طريق نظام الاختيـار للخلافة ، وقـد نعمت الامبراطور في عهودهم بأزهى درجة من التقـدم والرقي

والرخاء الاقتصادى والسلام ، والسبب فى ذلك واضح ، فبعد اغتيال دومينيانوس عام ٩٦ ميلادية خلفه الامبراطور نيرفا Nerva وكان شيخا متقدما فى السن ، الى جانب أنه قضى سنوات عديدة يعمل فى حقل المحاماة ، فاتخذ من اغتيال دوميتيانوس عبرة فى وجوب تحطيم فكرة وقف الاختيار على أفراد أو دائرة الأسرة الحاكمة ، فكان أول من عين خليفة له خارج حدود الأسرة الحاكمة ، وبذلك جعل الكفاءة والقدرات الطبيعية الهدف الأول فى تعيين نظام الخلافة ، ولقد كان من ثمار هذا التجديد الجرىء خيرة الأباطرة من أمثال تراجان وهادريان ، وجدير بالذكر أن كليهما لم يكن من دم غير أرستقراطى فحسب، بل أكثر من ذلك كان كلاهما ينحدر من أصل غير رومانى اذ كانا اسبانيين ، وجدير بالذكر أن الامبراطور جالبا Galba حاول أن يطبق هذا النظام عام ٦٩ ميلادية ولكنه لم ينجح ، لقد أثبت هذا النظام نجاحا شاملا وكان من ثماره أربعة من خيرة الأباطرة الذين حكموا الامبراطوريه الرومانية حيث ساد فى عهدهم السلام الرومانى الذى عم العالم بأسره ولم يعرف العالم عهد سلام مثل هذا العهد ،

اننا لا ننكر أن أول هؤلاء الأباطرة وهو تراجان قد انهمك في بداية حكمه بعدة حروب ولكن معظم هذه الحروب التي قام بها لم تكن ذات تأثير مدمر على الشعوب التي حاربها ، ثم تلاه ثلاثة آخرون جاءوا الى الحكم عن طريق الاختيار وكانوا من أنصار السلام وهم هادريانوس (١١٧ - ١٣٨ ميلادية) وانتونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١ ميلادية) وماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠ ميلادية). حيث ثبت أن نظام الخلافة رغم وجود عنصر المجازفة فيه - أسلم بكثير من عنصر الحكم والتوارث أو من طريقة الاختيار بالقرعة والدليل على ذلك هو سيادة السلام الروماني ابان عصور الأباطرة الذين جاءوا الى الحكم عن طريق هذا النظام .

هكذا بظهور السلام الروماني اختفت العوامل الأساسية التي تسبب عنها اندلاع الحرب ، لقد اختفى التفكك السياسي الذي تسبب عنه حالة الفوضى السياسية وذلك عندما استطاعت روما أن تضيف الى امبراطوريتها الدويلات الصغيرة واحدة بعد الأخرى حتى أضحت امبراطورية واحدة دون النظر الى الوسيلة التي تمت بها

هذه الوحدة (وهى الحرب) ، كما اختفت النزعة القومية العدوانية والاحساس العنصرى نتيجة لتكون دولة واحدة متعددة الأجناس ونتيجة لاختفاء التنافس بين الدويلات الصغرى والظروف التى تساعد عليه ، وبخاصة بعد انتشار الفلسفات الانسانية التى نادت بالأخوة بين البشر حتى فى الدولة الموحدة نفسها ، ونتيجة لذلك قلت حدة الصراع الطبقى ، اذ قل عدد العبيد نسبيا ، وتحسنت أوضاعهم الاجتماعية بظهور التشريعات التى وضعتهم محل اعتبار لأول مرة ، وفى أعقاب ذلك عم الرخاء وقويت روما اقتصاديا فى ظلال الاختيار الموفق لأباطرتها .

وظلت الامبراطورية الرومانية تنعم بهذا الرخاء والسلام حتى عصر ماركوس أوريليوس وبالرغم مما عرف عن هذا الامبراطور من ثقافة فلسفية عالية فقد ارتكب خطأ كبيرا عندما عين ابنه كومودوس Commodus وريثا له على العرش محطما التقليد السابق ، وبالطبع أصبح نظام الأباطرة منذ ذلك اليوم نظاما وراثيا ويسمى ذلك اليوم يوم النحس فى التاريخ الرومانى ، وكان ذلك فى عام ١٦٦ ميلادية اذ سرعان ماتدهور السلام واغتيل كومودوس

ومن ثم اندلعت فى أعقاب ذلك حرب أهلية مريرة استمرت ثلاث سنوات من١٩٣ الى ١٩٦ ميلادية وتلا الحروب الأهلية حروب أخرى . فقد اختفى نظام الاختيـار وحـل محله نظـام الوراثة الأسرية السـابقة ، وقد استخدم كثير من الأباطرة القوة والعنف لتحقيق ذلك بل استخدمت القـوة للوصول الى العرش ، وباختصار حلت القوة محل الكفاءة والقدرات الطبيعية ، وكان من نتائج هـذا الاجراء الغـير موفق أن تفككت الامبراطورية الشاسعة ومرت الامبراطورية بأيام شبيهة بالأيام التى مرت بها الدويلات اليونانية أثنـاء خبرتهـا بالصراعات الداخليـة Stasis والحـروب الاجتماعية اذ سرعان ما أدى الصراع الداخلى الى التدخل الخارجى ، فضلا عن أن الدولة قد تكبدت مبالغ طائلة فى مواجهة هذه الحركات ، كما كلفتها الحروب الأهلية الكثير مما أدى الى الانهيار الاقتصادى ، ويتضح ذلك من دراسة العملة الرومانية لهـذه الفترة ، وكان على الامبراطورية الرومانية أن تمـر بما يقـرب من مائة عـام (بعد قرار الامبراطور ماركوس أوريليوس) بحروب أهلية متعاقبة وحروب بين الأسر المتصـارعة على العـرش ، الى جانب

الحروب الخارجية قبل أن يجيء مرة أخرى سلسلة من الأباطرة الأكفاء ، ولكن مجيئهم كان متأخرا ، فلم تكن الامبراطورية بقادرة على أن تعود الى شبابها ، نعم لقد حاول هؤلاء الأباطرة توكيد سيادة روما على حدودها الجغرافية فى ايطاليا ، ولو لوقت قصير مابين ٢٦٨ الى ٣٢٤ ميلادية ولكن ذلك كان يتم على حساب مركز روما الاقتصادى ، ويقابل تكاليف الحروب المادية والاجتماعية. أما ممتلكات روما فى غرب أوربا ، فقد كانت مسرحا للعدوان الخارجى وللحروب الاجتماعية نظرا للتفاوت الكبير بين الطبقات ، وقد زاد من ذلك الاضمحلال والنزاعات على العرش ، وكان من نتيجة هذا أن فقدت روما سيطرتها على هذه الولايات واحدة تلو الأخرى ، ففى القرن الخامس الميلادى نجد أن هذه الولايات ولايات متقاتلة شبه مستقلة وأشبه بالحالة التى كانت عليها الدويلات اليونانية قبل ضم مقدونيا لها ، وسرعان ما أن عادت نعرة القوميات العدوانية الى الظهور مرة أخرى وانتشرت حالة الفوضى السياسية وكل ما ينجم عنها .

أخيرا يجب أن ننوه الى أن مركز الثقل فى

الامبراطورية الرومانية كان قد انتقل منذ قرن ونيف من أوربا الى آسيا الصغرى التى كانت أقل تعرضا للأخطار والهجمات العدوانية من الشمال (بعكس ايطاليا) الى جانب ما عرف عن آسيا الصغرى من أنها كانت منجم الرجال والمال ، ولقد كان الامبراطور قسطنطين أول من أدرك أهمية نقل العاصمة الى مدينة بيزنطة Byzantium حوالى عام ٣٣٠ ميلادية حيث كانت هذه المدينة فى الأصل مستعمرة يونانية أنشأها اليونان ضمن سلسلة من المستعمرات التى تطوق البحر الأسود ومنطقة البسفور والدردنيل فى عصر الاستعمار الكبير (القرن السابع والسادس ق٠م) وأريد لها أن تسيطر على هضبة الأناضول وعلى البحر الأسود وبحر مرمرة على السواء ٠

وبذلك بزغ نجم العصر البيزنطى حيث أصبحت هذه المدينة الصغيرة مركزا لامبراطورية شاسعة لما يقرب من ألف عام ، ولكنها للأسباب التى سبق ذكرها فشلت فى أن تنجح (بل انها لم تحاول اقامة سلام بيزنطى على غرار السلام الرومانى) ٠

خـاتمة

هكذا يتبين للقارىء أن الحرب ما زالت هي مشكلة المشاكل في التاريخ المعاصر كما كانت في الماضي وستظل كذلك في المستقبل ، والحرب ليست نزعة طارئة بل ظاهرة عميقة الأثر في المجتمع ، ضاربة في جذوره كما أن لها جذورا متعددة ومسببات كثيرة ، فالدولة التي تعلن الحرب على أخرى غالبا ما يكون وعاؤها قد فاض بما فيه من مشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية .

والحروب نوعان : حروب دفاعية تحدث عندما يجد المواطنون عدوا يدق على أبوابهم بالقوة يبغى دمارهم والاعتداء على ممتلكاتهم وسلبهم مكاسبهم ، عندئذ لا يجد المواطنون بدا من الدفاع عن الحمى وعن الشرف وعن مكاسبهم السياسية التي حققوها ، والدولة التي تخوض حربا دفاعا عن حرية الفرد وممتلكاته والمواطن الذي

يذهب للدفاع عن وطنه انما يدافع عن نظامه السياسى الذى يمثله والذى ارتضاه لنفسه ، اذن فالحكومة والشعب يتكاتفان ساعة العدوان كل فى حاجة الى الآخر .

أما النوع الآخر من الحروب هو الحرب العدوانية التى تعتدى فيها قوة أجنبية عاتية على شعب مسالم ، وهذا الدافع للعدوان ينبع من نعرة قومية عدوانية ومن عقدة السيطرة والاستعلاء على الشعوب المسالمة ، سواء كانت هذه النعرة عنصرية أو دينية أو سياسية ، وليس للعدل وجود فى نظر هذه القوى لأن منطقها يرى أن القوة هى الحق (Might is right) ، والأمثلة على هذه الحروب العدوانية كثيرة فى تاريخ العالم ، أقربها الحروب التى قام بها النازيون والفاشيون والتى يقوم بها الصهاينة حاليا ضد الأمة العربية،

وتنبعث الحروب العدوانية من مسببات سياسية كضعف الحكومات لأن النظام السياسى المستقر الآمن لايفكر فى حروب عدوانية ، وذلك لأن الحرب مجازفة لا يعرف عواقبها مهما بلغ المعتدون من القوة ومن الثقة بأنفسهم. كما أن السياسى العاقل يعرف جيدا أن نهاية العدوان هو الفشل مهما طالت آثاره أو قصرت .

كما تنبعث المشكلات السياسية فى الدولة المعتدية من التخلخل الاجتماعى بين طبقاتها لأن هذا التخلخل كثيرا ما يسبب فوضى ، والتخلخل الاجتماعى سببه المجتمع الظالم الذى يمارس التفرقة العنصرية أو السياسية أو الدينية ، وفى كثير من الأحوال عندما تجد حكومات هذه الدول نفسها يائسة من فوضى الأحوال فيها ، فانها تلجأ الى وسيلة رخيصة وهى محاولة ابتلاع المشكلات واثارة العاطفة الوطنية الرخيصة بين مواطنيها حتى ينسوا مشكلاتهم وصراعاتهم وينصهرون فى بوتقة واحدة دفاعا عن أمنهم القومى ، ولكن ثبت أن هذه اللعبة أشبه بتناول العقاقير المهدئة التى ما أن يزول مفعولها حتى يعود الألم أشد مرارة وخطرا .

كذلك تلعب شخصية الحاكم الذى يجىء على رأس الجهاز الحكومى فى الدولة دورها فى اعلان الحرب أو تحقيق السلام ، لأن مهمة الحكومات الصالحة الآن هى تجنب العدوان وضمان السلام . وبالتالى فان نظام الحكم الداخلى له اعتباره فكلما كان النظام ديمقراطيا كان قويا قادرا على رد العدوان عن أرضه .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٦٠٦٤

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المركز الرئيسي : كورنيش النيل ـ بولاق

تليفون : ٧١٠٥٥ /٧١٠٥٨ تلغرافياً . يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل ـ القاهرة ـ ج ٠ م ٠ ع ٠
تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع في ج ٠ م ٠ ع ٠

القـــــاهرة

٣٦ شارع شريف ت ٠ ٤٠٠١٢ ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابي ت : ٤٦٣٨٣ ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان ت : ٢١١٨٧ الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ الجيزة : ١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلي ٢٦٠٥ المنيا : شارع ابن خصيب ت:٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ اسيوط : شارع الجمهورية ت.٢٠٣٢
المحلة الكبرى: ميدان المحطة ٤٢٧٧ اسوان . السوق السياحي ت: ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج ٠ م ٠ ع ٠

لبنان : الشركة القومية للتوزيع ـ بيروت ـ شارع سوريا بناية أبناء صمدي وصالحة
العراق: الشركة القومية للتوزيع ـ بغداد ـ ميدان التحرير ـ عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمون خارج ج٠م٠ع٠

الكويت وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب ـ عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدي ـ طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس ـ جاكرتا
تونس الشركة التونسية التوزيع ٥ شارع قرطاج ـ تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ٤٢ ـ ٤٤ الشارع الملكي ـ الاحباس ـ الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل ـ ليدن

الهيئة المصرية العامة للكتاب
في خدمة القارئ العربي

المكتبة الثقافية

جامعة حرّة

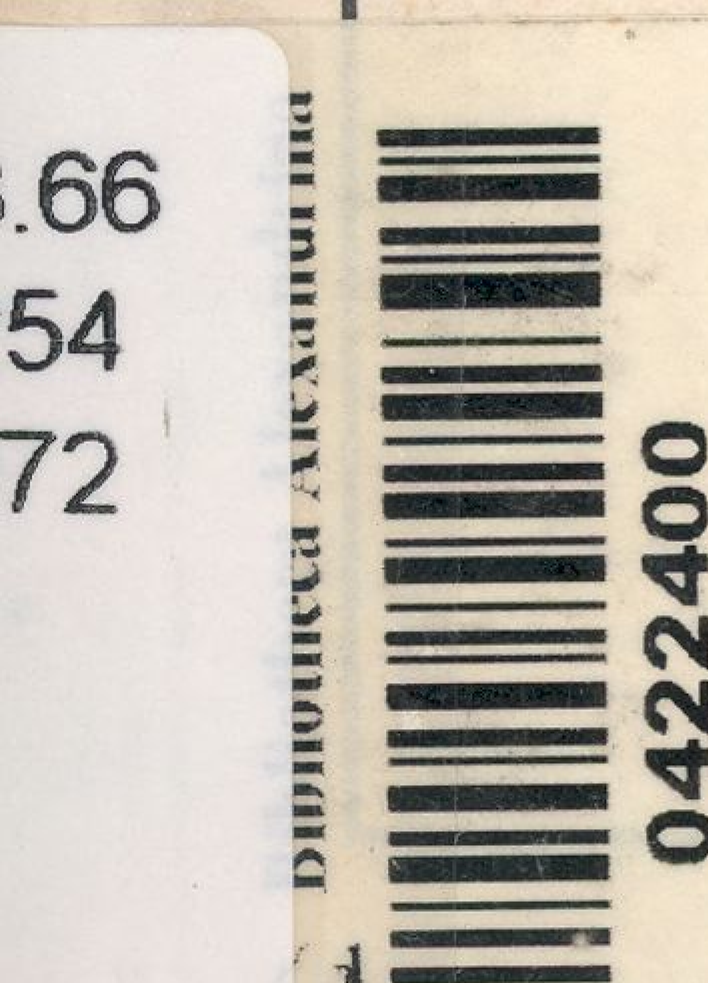
- خلاصة الفكر القومى والإنسانى
- تجعل المعرفة متعة تعمّق الشعور بالحياة .. وسلاحًا يساعد على الانتصار فى معركة الحياة

يصدر قريبا :

دور الميكروبات فى الحياة

(الإنتاج الزراعى)

الثمن ٥ قروش





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب